

الله الحسنى



الدكتور
عمر سليمان الأشقر

دار النفائس
للنشر والتوزيع

شرح ابن القيم

لأسماء الله الحسنى

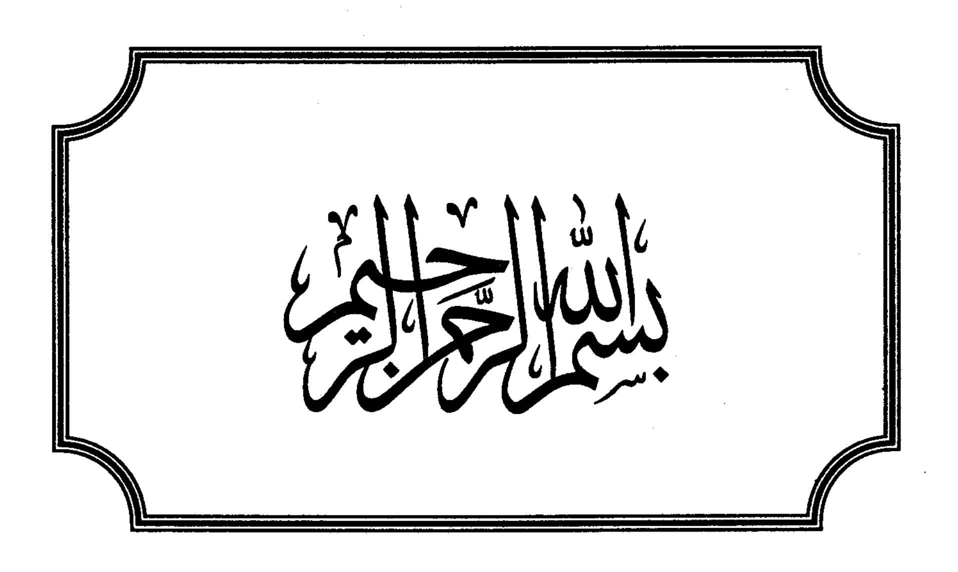
الدكتور

عمر سليمان الأشقر



دار النفائس

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨م

الطبعة الأولى



العبدلي/ مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١
Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM
www.al-nafaes.com

فَاتِحَةُ الكِتَابِ

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والحمد لله الكبير المتعالي، الذي تسمّى بأحسن الأسماء، واتَّصف بالأفضل من الصفات، والحمد لله ذي الجلال والإكرام الذي حاز الكمال من الأسماء والصفات والفعال.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، فله أعظم المنن، وإليه ينتهي الجود والكرم، وإليه يتناهى المجد والجلال والإكرام، وأصلِّي وأسلِّم على المبعوث رحمة للعالمين، الذي هدانا إلى الصراط المستقيم، وأقامنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتنكبها إلا ضال، فصلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين، وأصلي على صحبه الأخيار، وآله الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا كتاب جامع - إن شاء الله - لما تحدث عنه الشيخ العلاّمة أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي الزرعي، ثمّ الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية في باب أسماء الله وصفاته.

وهذا الكتاب له مذاق خاص وطعم خاص بين الكتب التي تُعنى بأسماء الله وصفاته، فمنذ سنوات أصدرت بعون الله وتوفيقه كتاباً في هذا الموضوع، وقد اقتضاني ذلك إلى الاطلاع على الكتب التي شرحت أسماء الله الحسنى، وأنا اليوم

وبعد أن اطلعت على ما دوَّنه ابن القيم أجده فرداً فيما قام به، سبق غيره في هذا المجال سبقاً لا يُبارى، ولا يُحاكى.

إن الدارس لما دوَّنه ابن القيم في هذا الباب يجده يتحدث عن موضوع خالط نفسه، وسرى إلى شغاف قلبه، فإذا تحدث عنه، فلا تجده اكتفى بالنقل عن غيره، أو اكتفى بالرجوع إلى كتب اللغة، ولكنك تجده يفيض علينا علماً قد تناهى نضجه، واستوى على سوقه، فهو يتحدث عن مجاهدة ومعاناة، فيروعك منه تأصيلات ولفتات ونظرات، تجعلك تطرب لما يورده عليك، وتجد كلامه يسري إلى نفسك تياراً كهربائياً، لا تملك له دفعاً.

وهو في ذلك كله يعتمد المنهج الذي كان عليه أهل السنّة والجماعة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان من بعدهم، ويرصع ذلك كله بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وهو في ذلك يصوب ويخطئ، ويبين عوار الذين ضلوا في هذا الباب، ويبين الآثار الخطيرة التي تترتب على أقوالهم، فإن المناهج المخالفة تقوم حجاباً يحول بين أصحابها وخالقهم وبارئهم، بمقدار ما تلبَّسوا به من ضلال.

ومما يُحمد عليه العلاّمة ابن القيم رحمه الله أنه قعد قواعد كثيرة، جعلها ضابطة للحق في هذا الباب، ونافية للباطل الذي تلبست به، ومصححة لما ذهب إليه الذين ضلوا في هذا الطريق، وقد رصدت كثيراً منها في آخر هذا الكتاب.

ولما كنت ناقلاً عن الشيخ العلاّمة ابن القيم من كتبه، التي كتبها في عمره المديد، فإنني كنت أجد في بعض الأحيان أكثر من نص عنه في الموضوع الواحد، فإذا كان النصّان متفقان اكتفيت بأحدهما، وقد ألجأ إلى الاختصار للجمع من كلا القولين ما يستقيم به الأمر على منهج سواء.

ومن قرأ كتب الشيخ العلاّمة ومؤلفاته، وجدها تُعنى بأسماء الله وصفاته عناية كبيرة، ويردد فيها أنه ينوي تأليف كتاب جامع لأسماء الله وصفاته، يجري فيه وفق

ما دوَّنه في بعض مؤلفاته عن تلك الأسماء والصفات. ومما اطلعت عليه من ذلك قوله في كتابه القيم [بدائع الفوائد: ١/ ٣٠٠ طبعة مجمع الفقه] «عسى الله أن يعين بفضله على تعليق «شرح الأسماء الحسنى» مراعياً فيه أحكام هذه القواعد [هي عشرون قاعدة أوردها قبل هذا الكلام] بريئاً من الإلحاد في أسمائه، وتعطيل صفاته، فهو المانُّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم».

وبعد أن بيَّن رحمه الله تعالى اسم الله «السلام» في كتابه «بدائع الفوائد (٢/ ١١٨)» قال: «فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزَّه عنه تبارك وتعالى، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمن من هذه الأسرار والمعاني، والله هو المستعان المسؤول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط، إنه قريب مجيب».

ولم أجده رحمه الله تعالى قد صرح في كتاب من كتبه أنه قام بتدوين هذا الكتاب الذي عزم على تدوينه، ولذا فإن الاحتمال قائم بأنه دوَّن ما عزم عليه، أو أنه لم يتمكّن من ذلك، ومن جزم من أهل العلم بأن الشيخ ابن القيم قد دوَّن هذا الكتاب، فإنه ظن قائم على ما أخبر الشيخ من عزمه على ذلك، فإني لم أرَ من أخبر بأنه اطلع على هذا الكتاب، فإذا وُجد هذا الكتاب فإن ما دوّنته عنه يكون نوراً على نور، فيجتمع ما سطره ابن القيم تأليفاً مستقلاً في أسماء الله وصفاته، مع ما جمعته عنه فيما تفرّق من كتبه.

ولا يخفى على القارئ الكريم أن تأليف كتاب يجمع أقوال ابن القيم في مسألة كثيرة المباحث يحتاج إلى استقراء دقيق لمؤلفات ابن القيم، وقد أعانني على القيام بهذا الجمع أنني كنت أضع يدي على ما تعلق بمباحث الأسماء والصفات وأنا أدقق النظر في مؤلفات ابن القيم لاستخراج مباحث الإيمان من تلك المدونات، وقد أخرجت مباحث الإيمان في خمسة أجزاء قبل أن أبدأ بهذا الكتاب.

ومع ذلك كله فإني عندما أخذت في تدوين هذا الكتاب، وجدتني محتاجاً إلى العودة إلى بعض كتبه مرة أخرى، ومع شدة البحث والتنقيب عن أسماء الله وصفاته ومباحثها في مؤلفات ابن القيم، فإنني أجزم أنه قد فاتني بعض منها، وأرجو أن لا يكون هذا الذي فاتني كثيراً.

إن الخطوة التالية لجمع المادة العلمية هو التنسيق بين مباحث الكتاب، وهذا يقضي أن يستوعب الباحث ما دوّنه ابن القيم، ثم يصنف بعد ذلك تصنيفاً علمياً، تسهل دراسته واستيعابه، وقد أخذ مني ذلك جهداً طويلاً، فاستوعبت مباحثه وقسمتها، وحذفت ما ليس له علاقة بالموضوع، وحذفت المكرر، وفي بعض الأحيان أثبته لبعض الفوائد الزائدة هنا وهناك.

وقد التزمت بأن أضع في هذا الكتاب ما دونه ابن القيم رحمه الله تعالى دون ما دوّنه غيره، فإن الكتاب منسوب إلى ابن القيم وحده دون غيره، فلا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يضع في كتابه ما دوّنه غيره في باب الأسماء والصفات، وقد رأيت كتاباً عنون له جامعه بـ «شرح أسماء الله الحسنى» لابن القيم، وقد رأيته قد قصّر كثيراً في جمع المادة العلمية من جهة، وأضاف إلى الكتاب كثيراً مما نقله عن القرطبي وغيره من المؤلفين في مباحث أسماء الله وصفاته، وهذا خطأ كبير، فقد كان عليه أن لا يضمن الكتاب ما ليس من قول ابن القيم، غفر الله لنا وله.

وقد جعلني هذا الملحظ الذي سبق ذكره لا أُدخل نفسي فيما كتبه ابن القيم، فالكتاب هو تدوين ابن القيم وتأليفه، ودوري هو دور الجامع لمباحثه، والمنسق لموضوعاته، ولذا فإني لم أزاحم ابن القيم فيما ذهب إليه إلا نادراً، وقد سبق أن دوّنت كتاباً في مباحث أسماء الله وصفاته، ولذا قد يجد القارئ تناقضاً بين ما دوّنته، وذهبت إليه في كتابي، وبين ما جمعته من تدوين ابن القيم:

ومن نظر في هذا الكتاب يجد أنني دوّنته في ستة مباحث:

الأول: تصدير للكتاب ببعض ثناء ابن القيم على ربّه وتمجيده له، وابن القيم من الذين أطالوا القول في ذلك، وقد اخترت ثلاثة موضوعات من ذلك الثناء وذلك التمجيد.

والمبحث الثاني في أقسام الصفات والأخبار التي رأى ابن القيم أنها تقسم إليها.

والمبحث الثالث: ذكرت فيه الغاية المقصودة من وراء العلم بأسماء الله وصفاته، وهي محصورة في أمرين: الأول: التعرف إلى الإله الحق سبحانه. والثاني: تمجيده وتعظيمه بذكره بأسمائه وصفاته، واستغاثته ودعائه بها.

والمبحث الرابع: هو صلب مباحث هذا الكتاب، فقد جمعت فيه ما دوّنه ابن القيم في أسمائه وصفاته، وجعلت ما فرّقه في الكلام على كل اسم وصفة تحت ذلك الاسم، ونسقت بين كلامه الذي جمعته، وفق ما يقتضيه التدوين والتأليف، وهذا المبحث هو أطول مباحث هذا الكتاب.

والمبحث الخامس: جمعت فيه ما صرح ابن القيم فيه على عدم جواز إطلاقه على الله، أو تسميته به، ومنه ما صرح بذكر من قال به من أهل العلم.

والمبحث السادس: جمعت فيه ما أورده ابن القيم رحمه الله تعالى من قواعد ضابطة للفقه الصحيح الذي يتعلق بأسماء الله وصفاته، وهذه القواعد تضبط المسلم من الخطأ في باب أسماء الله وصفاته.

وقد جمع ابن القيم رحمه الله تعالى عشرين قاعدة في موضع واحد من كتابه «بدائع الفوائد»، وجمعت مما دَوَّنه متفرقاً في كتبه قواعد أخرى، وقد زادت هذه القواعد على الثلاثين قاعدة.

لقد ترجمت لابن القيم في كتاب الإيمان بالله، وهو الجزء الأول من سلسلة واحة الإيمان عند ابن القيم، وذكرت فيه الطبعات التي اعتمدتها من كتابه، وقد وصلني وأنا في خاتمة تدوين هذا المؤلف ما دوَّنه مجمع الفقه الإسلامي في كتب ابن القيم بعنوان: «آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال»، وقد أعدت قراءة الكتاب الأول منها وهو «بدائع الفوائد» وقد اعتمدت طبعته فيما أوردته من المباحث، وإن لم ألغِ طبعة دار الخير، فإن كان النص من طبعة المجمع فلا أشير إلى طبعته غالباً، وإن كان النص في طبعة دار الخير أشرت إليه، ونصصت عليه غالباً.

أسأل الله تبارك وتعالى أن أكون قد وُفِّقت فيما جمعت من مباحث أسمائه تبارك وتعالى في هذا الكتاب، وأسأله سبحانه أن يجعل ما قدمته ذخراً لي يوم القيامة، إنه سميع قريب مجيب، وأساله تعالى أن ينفع به عباده، ويثيبهم على تدارسه والعمل به، والحمد لله رب العالمين.

أ. د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

عمان – الأردن

١٤ ربيع الأول ١٤٢٨هـ

٢ نيسان ٢٠٠٧م

المبحث الأول

تمجيد الله والثناء عليه وتعظيمه

اتخذ ابن القيم رحمه الله من تمجيد الله والثناء عليه وتعظيمه أنشودة يتغنى بها في كتبه ومؤلفاته، وقد تفنن وتأنق في هذه المدائح والمحامد، وجاء بأطايب القول.

وقد استمد هذه المدائح وذلك التمجيد من مدائح الله لنفسه، ومدائح الرسول ﷺ لربّه، «ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها – كما يقول ابن القيم – مدائح وثناءً تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرّك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسّم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أن تَجْعَلَ القُرْآن رَبيع قَلْبي، وَنُورَ صَدْري، وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهابَ هَمِّي وَغَمِّي» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد في مسنده وأبي يعلى والبزار والطبراني].

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «فَيَفْتَحُ على قَلبي مَنْ مَحَامِدِهِ بِشيءٍ لاَ أُحْسِنُهُ الآن» [عزى محقق الكتاب الحديث إلى البخاري ومسلم].

وكان يقول في سجوده: «أعوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكِ».

فلا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه ألبتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناءٌ لا يعلمه ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعملونه كنقرة عصفورٍ في بحر» [طريق الهجرتين: ص٢٥٠].

وسأورد بعض تمجيد ابن القيم لربه وثنائه عليه، ومدائحه له، التي لعلها كما قال: «الثناء الذي لم تتحرك به الخواطر، ولا هجست به الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر» [طريق الهجرتين: ٢٥٠].

الثناء الأول على الواحد الأحد:

قال ابن القيم مثنياً على ربّه وممجداً له في مطلع كتابه إغاثة اللهفان: «الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله، وتعرّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، فعلموا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره وإقلاله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

ولا يحجب المخلوق عنه تستره بسرباله، الحي القيوم، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنفرد بالبقاء، وكل مخلوق منتهي إلى زواله، السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين في سؤاله، البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء حيث كانت من سهله أو جباله.

وألطف من ذلك رؤيته لتقلب قلب عبده، ومشاهدته لاختلاف أحواله، فإن أقبل إليه تلقاه، وإنما إقبال العبد عليه من إقباله، وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوه، ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوّية المهلكة إذا وجدها وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله، وإن أصر على

الإعراض ولم يتعرض لأسباب الرحمة، بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدو الله وقاطع سيِّده، فقد استحق الهلاك، ولا يهلك على الله إلا الشقي الهالك؛ لعظيم رحمته وسعة إفضاله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلّ عن الأشباه والأمثال، وتقدّس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادَّ لحكمه ولا معقب لأمره: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾»

[إغاثة اللهفان: ١/ ٣].

الثناء الثاني على ربه وفاطره الملك القدوس:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مطلع كتابه شفاء العليل مثنياً على ربه ممجداً له:

«الحمد لله ذي الإفضال والإنعام، والمنن الجسام، والأيادي العِظام، ذي الجلال والإكرام، الملك القدوس السلام، الذي قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، فقدَّر أرزاقهم وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسّم بينهم معايشهم وأموالهم – وعرشه على الماء – قبل خلق الليالي والأيام، فأبرم القضية، وقدَّر البرية، وقال للقلم: اكتبْ، فجرى بما هو كائن في هذا العالم على تعاقب السنين والأعوام.

ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش المجيد بذاته، منفرداً بتدبير خلقه بالسعادة والشقاوة، والعطاء والمنع والإحياء والإماتة، والخَفْضِ والرَّفع، والإيجاد والإفْنَاء، والنقضِ والإبْرام، يَسْأله مَنْ في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن.

فَلا يَشْغله سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، ولا تُغَلِّطُه المسائِلُ، ولا يَتَبَرَّم بإلحاح الملحِّين على الدَّوام، يسمع ضَجيج الأصْوات، باختلاف اللُّغات، على تَفَنُّنِ الحاجات.

ويرى دبيبَ النَمْلةِ السَّوداء، تحتَ الصَّخرةِ الصمّاء، في اللَّيْلَةِ المدلهمَّة الشَّديدَة الظلام، لا تَسقط ورقةٌ إلا بعلْمه، ولا تَتَحرَّكُ ذَرَّة إلا بإذنه، ولا يقع حادثٌ إلا بمشيئَته، ولا يخلو مَقْدورٌ عَنْ حكْمَته، فَلَهُ الحِكمة البَاهرة، والآيات الظاهرة، والحجَّةُ البالغةُ، والنّعمة السابغة، على جميع الأنام، وَسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً وأوْسَع كلَّ مخلوق فَضْلاً وجُوداً وحلماً، وقَهَر كلَّ شيءٍ عزَّةً وحكماً، فَعَنت الوُجوهُ لجلال وَجهه، وعَجزت العقولُ عَنْ معرفة كُنهه، وقامت البراهين على استحالة مثله وشبهه.

فهو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظَّاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، وهو مستوٍ على عرشه، مستولٍ على خلقه، يسمع ويرى.

كلّم موسى تكليماً، وتجلّى للجبل فجعله دكّاً هشيماً، فهو الحيُّ القيوم الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، فهو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأعظم رقيب، وأرأف رحيم، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فأزمّة الأمور بيديه، ومرجعها كلُّها إليه، فالقلوب له مفضية، والسِّرُ عنده علانية، والمستور لديه مكشوف، وكلُّ أحدٍ إليه فقير ملهوف على الدوام.

فسبحان من نفذ حكمُه في بريّته، وعدل بينهم في أقضيته، وعمَّهم برحمته، وصرَّفهم تحت مشيئته وحكمته، وأكرمهم بتوحيده ومعرفته، جعل أهل ذكره أهل مجالسته، وأهل شكره أهلَ زيادته، وأهل طاعته أهلَ كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إنْ تابوا فهو حبيبُهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وإن أصرُّوا فهو طبيبُهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليطهرهم من الدنس والآثام.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ولا كفؤ له، ولا سميَّ له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، بل هو الأحد الصمد الذي تفرّد بإلاهيّته، وتوحَّدَ بربوبيته، وتعالى عن مشابهة خليقته، وأنّى يشبه العبدُ الملكَ القدُّوسَ السَّلام!» [شفاء العليل: ص٤١-٤٣].

التمجيد والثناء الثالث:

قال ابن القيم ممجداً ربّه مثنياً عليه في كتابه «الوابل الصيب»:

«يدبر أمر الممالك، ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى، والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات، نافذة بحسب إرادته ومشيئته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ووسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه، ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على كثرة حاجاتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات.

وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر، فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد، وخطر بقلبه، ولم تتحرك به

شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا، له الخلق والأمر، وله الملك وله الحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، وله الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته إلى كل حي.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩]. يغفر ذنباً، ويفرج همّاً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلِّم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيراناً، ويغيث لهفانَ، ويفك عانياً، ويُشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مبتلىً، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمِّن روعة، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، يمينه ملأى لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار.

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنه لم يغض ما في يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها.

لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألُها أن يُعطِيَها، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم،

كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه، وإنسهم وجنّهم، وحيهم وميتهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأله، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولو أن أشجار الأرض كلها – من حين وُجدت إلى أن تنقضي الدنيا – أقلام، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد، لفنيت الأقلام، ونفد المداد، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى، وكيف تفنى كلماته جلّ جلاله، وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية، فهو أحق بالفناء والنفاد؟ وكيف يُفني المخلوقُ، غيرَ المخلوق؟

هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

تبارك وتعالى أحق من ذُكِر، وأحق من عُبِد، وأحق من حُمِد، وأولى من شُكِر، وأنصر من ابتُغِي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئِل، وأعفى من قَدِر، وأكرم من قُصِد، وأعدل من انتقم. حكمُه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ	كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبُوا فبعدلِهِ، أو نُعِّمُوا	فبفضلِه، وهو الكريمُ الواسعُ

هو الملك لا شريك له، والفرد فلا ندّ له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة له، والعلي فلا شبيه له ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل مُلْك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله. لن يُطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يطاع فيشكر، ويعصى

فيتجاوز ويغفر. كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات، اضمحل عندها كل نور، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال، ولا تناله عبارة، والمقصود أن الذكر ينوّر القلب والوجه والأعضاء، وهو نور العبد في دنياه وفي البرزخ وفي القيامة.

وعلى حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أعماله وأقواله ولها نور وبرهان، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل، وهكذا يكون نوره الساعي بين يديه على الصراط، وهكذا يكون نور وجهه في القيامة، والله تعالى المستعان وعليه الاتكال» [الوابل الصيب:٦٢-٦٤].

المبحث الثاني

أقسام الصفات والأخبار التي تُطْلَق على اللّٰه

قسّم ابن القيم – رحمه الله تعالى – الصفات الإلهية التي وردت في الكتاب والسنّة والأخبار إلى سبعة أقسام، وبيّن أنه يتوسع في باب الأخبار التي تطلق على الله عز وجل، كالذات والموجود ما لا يتوسع في باب الأسماء والصفات، كما سيأتي ما قرره من أن باب الصفات توقيفي، أما باب الأخبار عنه فليس كذلك.

والأقسام السبعة التي قسّم الصفات الإلهية والأخبار التي يصح إطلاقها على الله هي:

الأول: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتاً، إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه استمجد المرخ والعفار وأمجد الناقة علفاً.

ومنه: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ [البروج:١٥]، صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وكذلك الصمد، قال ابن عباس: هو السيد الذي كَمُلَ في سؤدده.

وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده.

وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد.

وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء.

وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكّر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

والعرب تسمي أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

السابع: صفات السلب، وصفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت، كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو

لتضمنها ثبوتاً، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] متضمن لكمال قدرته.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس:٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣] متضمن لكمال صمديته وغناه.

وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جلّ عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب. [بدائع الفوائد:١/ ١٤٤ بشيء من الاختصار].

المبحث الثالث

أسماء الرب وصفاته هي طريق إلى معرفة الله والثناء عليه

من عرف أسماء الله وصفاته، وتبصر في معانيها الصحيحة، عرف ربه تبارك وتعالى، وعرف الطريق إلى الثناء عليه، والتمجيد له، وتعظيمه، وقد أبدا ابن القيم وأعاد في تقرير هذين الأمرين، فمن ذلك قوله:

١ - القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر، كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يــــراد مــــن القلــــب نــــسيانكم وتـــأبى الطبـــاع عـــلى الناقـــل

فتبقى المحبة طبعاً لا تكلفاً، وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقَوِيَ طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوي الرجاء جدّ في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل، والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب، واللهو واللعب

والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به وبكل ما يجريه على عبده، ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه. والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله، وحُسْن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه،

ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه. ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع» [الفوائد: ٨٠-٨٢].

٢- وقال ابن القيم رحمه الله في موضع آخر: «تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها منه ومردها إليه، مستوياً على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر.

الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك في ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذره مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه. فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوه. ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده. وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير. فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً، هذا شأنه فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه،

ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والإنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنفع بحياتها؟» .

٣- وقال ابن القيم في موضع ثالث: «ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناءً، تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك به الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسّم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أن تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبيع قَلْبي، وَنُورَ صَدْري، وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد ورجاله رجال الصحيح].

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «فَيَفْتَحُ على قَلبي مَنْ مَحَامِدِه بِشَيْءٍ لاَ أُحْسِنُهُ الآن» [رواه البخاري في التفسير]». [طريق الهجرتين: ٢٥٠].

٤- وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع رابع: «والمقصود أن الرب أسماؤه كلّها حسنى ليس فيها اسم سوءٍ، وأوصافُه كلُّها كمال ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلّها حكمة ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة، وله المثلُ الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزّه عمّا يضادّ صفات كماله: فمنزَّه عن الموت المضادّ للحياة، وعن السِّنَة والنوم والسهو والغفلة المضادّ للقيومية. وموصوف بالعلم منزّه عن أضداده كلّها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزّه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياءِ، موصوف

بالعدل منزّه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزّه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزّه عن أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقيّة منزّه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام منزّه عمّا يضادّه بوجه من الوجوه، ومستحقّ للحمد كلّه، فيستحيلُ أن يكونَ غير محمود، كما يستحيلُ أن يكونَ غير قادر ولا خالق ولا حيّ، وله الحمدُ كلُّه واجب لذاته، فلا يكون إلاّ محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً وقادراً». [طريق الهجرتين:٢١٤].

٥- وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن الرب يُذكر بأسمائه وصفاته، ويثنى عليه بها، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى، وهذا أيضاً نوعان، أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر. وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث، نحو سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ونحو ذلك.

فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو سبحانه الله عدد خلقه، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله، وقولك: الحمد لله عدد ما خلق في السماء، وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق، أفضل من مجرد قولك: الحمد لله.

وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه. سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته» رواه مسلم. وفي الترمذي وسنن أبي داود عن سعد بن أبي وقاص، أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح بها فقال: «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل» فقال: «سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض. وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر» .

المبحث الرابع
أسماء الله وصفاته التي شرحها ابن القيم في كتبه

الاسم الأول
هو الله الذي لا إله إلا هو

١- التعريف بهذا الاسم:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى معرفاً بالله: «الله اسم لرب العالمين خالق السموات والأرض الذي يحيي ويميت، وهو رب كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يراد به هذا المسمى، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى» [الصواعق المرسلة: ٢/ ٧٥٠].

٢- اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى:

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تأله الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال المُلك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيتُه وملكه مستلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيلُ ثبوتُ ذلك لمن ليس بحيّ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وصفاتُ الجلال والجمال: أخصُّ باسم «الله»» [مدارج السالكين: ١/ ٥٦].

وكان ابن القيم قال قبل هذا في هذا الموضع: «اسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وصفات الإلهية: هي صفاتُ الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيفُ الله تعالى سائرَ الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ويقال: «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك». [مدارج السالكين:١/ ٥٦].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع آخر: «الإله هو الجامعُ لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخلُ في هذا الاسم جميعُ الأسماء الحسنى، ولهذا كان القولُ الصحيح أن «الله» أصلُه «الإله» كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذَّ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى». [بدائع الفوائد:٢/ ٧٨٢].

٣- الله هو المعبود بحق:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله هو الإله الحقُّ، ومعبودُهم الذي لا إله لهم سواه، ولا معبودَ لهم غيره، فكما أنه وحدَه هو ربُّهم ومليكُهم لم يشركْه في ربوبيَّته ولا في ملكه لهم أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودُهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلهيّته، كما لا شريكَ معه في ربوبيته ومُلْكِه.

وهذه طريقةُ القرآن الكريم يحتجُّ عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وإذا كان وحدَه هو ربنا وملكنا وإلهنا فلا مَفْزَعَ لنا في الشَّدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبودَ لنا غيره، فلا ينبغي أن يُدعى ولا يُخافَ ولا يُرجى ولا يُحَبَّ سواه، ولا يُذَلَّ لغيره، ولا يُخْضَعَ لسواه، ولا

يُتَوَكَّلَ إلا عليه؛ لأن من ترجوه وتخافُهُ وتدعوه وتتوكَّلُ عليه، إما أن يكونَ مُرَبِّيَكَ والقَيِّمَ بأمورِكَ ومتوليَ شأنك، وهو ربُّك فلا ربَّ لك سواه؛ أو تكونَ مملوكه وعبدَه الحقَّ، فهو ملكُ الناس حقّاً، وكلُّهم عبيدُه ومماليكُه.

أو يكون معبودَك وإلهَكَ الذي لا تستغني عنه طَرْفَةَ عينٍ، بل حاجتُكَ إليه أعظمُ من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهو الإلهُ الحقُّ، إله الناس الذي لا إله لهم سواه، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجؤوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم، ووليُّهم ومتولِّي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربِّه ومالكه وإلهه». [بدائع الفوائد:٢/ ٧٨٠].

٤- الحكمة في وجود الألف في أول اسم الله:

نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن ابن فورك، قال: «الحكمة في وجود الألف في أوله أنها من أقصى مخارج الصوت قريباً من القلب الذي هو محل المعرفة إليه، ثم الهاء في آخره مخرجها من هناك أيضاً؛ لأن المبتدأ منه والمعاد إليه، والإعادة أهون من الابتداء، وكذلك لفظ الهاء أهون من لفظ الهمزة، هذا معنى كلامه، فلم يقل ما قلناه في المضمرات إلا اقتضاباً من أصول أئمة النحاة واستنباطاً من قواعد اللغة». [بدائع الفوائد/ طبعة دار الخير: ١/ ١٦٢].

٥- فوائد حذف العامل في «بسم الله»:

شرع لنا ربنا أن نقول: «بسم الله» في الأعمال الطيبة كالوضوء والذبح والتلاوة ونحو ذلك، وفي ذلك حذف للعامل، فلا يقول المسمي: أتوضأ باسم الله، ولا أذبح، ولا أتلو، ولحذف العامل – كما يقول ابن القيم – فوائد عديدة:

أ- أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل، وهو لا يستغني عن فاعله؛ كان ذلك مناقِضاً للمقصود، وكان في حذفه مشاكلة اللفظ

للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله، كما تقول في الصلاة: «الله أكبر»، ومعناه: من كل شيءٍ، ولكن لا تقول هذا المقَدَّر، ليكون اللفظ في اللسان مطابقاً لمقصود الجنان، وهو: أن لا يكون في القلب ذِكْر إلا الله وحده، فكما تجرَّد ذكرُه في قلب المصلِّي، تجرَّدَ ذكره في لسانه.

ب- أن الفعل إذا حُذِفَ صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فِعْل أولى بها من فِعْل؛ فكان الحذف أعم من الذِّكر، فإن أي فعل ذكرته؛ كان المحذوف أعم منه.

ج- أنَّ الحذف أبلغ؛ لأنَّ المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدّعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به، لأنَّ المشاهدة والحال دالة على أن هذا الفعل وكُلّ فعل فإنما هو باسمه - تبارك وتعالى - ، والحَوَالة على شاهد الحال أبلغ من الحَوَالة على شاهد النطق، كما قيل:

ومـن عَجَـبٍ قـول العَـوَاذِل مَـنْ بِـهِ ... وهَلْ غيرُ مَـنْ أهْـوى يُحِـبُّ ويُعْـشَقُ»

[بدائع الفوائد:٤٣].

٦- اسم الله مشتق:

عزا ابن القيم رحمه الله تعالى إلى السهيلي وشيخه أبي بكر بن العربي: «أن اسم الله غير مشتق؛ لأنَّ الاشتقاق يستلزم مادةً يُشتقّ منها، واسمه - تعالى - قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق. ولا ريب أنه إذا أُريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمدٌّ من أصل آخر، فهو باطل».

ورد على هذا قائلاً: «ولكن الذين قالوا بالاشتقاق، لم يريدوا هذا المعنى، ولا أَلَمَّ بقلوبهم، وإنَّما أرادوا: أنه دالّ على صفةٍ له تعالى، وهي الإلهية، كسائر أسمائه

الحسنى، كالعليم والقدير، والغفور والرحيم، والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له. فما كان جوابكم عن هذه الأسماء؛ فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه: الله».

ثم بيّن الصواب في المسألة، فقال: «الجواب عن الجميع: أنَّا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولُّد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه: «أصلاً وفرعاً» ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

وقول سيبويه: «إن الفعل أمثلة أُخِذَت من لفظ أحداث الأسماء»؛ هو بهذا الاعتبار، لا أنَّ العرب تكلموا بالأسماء أولاً، ثم اشتقوا منها الأفعال، فإن التخاطب بالأفعال ضروري، كالتخاطب بالأسماء، لا فرق بينهما، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اتفاق تلازم، سُمِّي المتضمِّن – بالكسر – : مشتقّاً، والمتضمَّن – بالفتح –: مشتقّاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله – تعالى – بهذا المعنى». [بدائع الفوائد: ١/ ٣٩-٤٠].

مصدر الاشتقاق:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: أن «الناس اختلفوا أعظم اختلاف، هل هو مشتق أم لا، وهل هو مشتق من التأله أو من الوله، أو من لاه إذا احتجب» [الصواعق المرسلة: ١/ ٧٤٩].

٧- ارتباط الخلق باسم الله:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الخلق والأمر مرتبط باسمه الله واسميه الرب والرحمن، وفي ذلك يقول: «وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلقُ، والأمرُ، والثوابُ، والعقابُ، وكيف جمعت الخلق وفرّقتهم، فلها الجمعُ، ولها الفرقُ.

فاسم «الرب» له الجمعُ الجامعُ لجميع المخلوقات، فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيءٌ عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألّهه وحدَه السعداءُ، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلاّ هو، الذي لا تنبغي العبادةُ والتوكلُ، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلاّ له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدينُ والشرع، والأمر والنهي - مَظْهَره، وقيامه - : من صفة الإلهية. والخلقُ والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم، ووفقهم، وهداهم، وأضلهم بربوبيته، وأثابهم، وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى» [مدارج السالكين:٥٨/١-٥٩].

٨- من خصائص الإلهية: الكمال المطلق:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «من خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده. ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره. فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره تعالى فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ندَّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله. ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة». [الجواب الكافي:١٩٤].

٩- دعاء الله بـ «اللهم»:

«معنى اللهمَّ – كما يقول ابن القيم – يا الله، ولهذا فلا تُستعمل إلا في الطلب فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني.

ونقل ابن القيم عن سيبويه: أن الميم زيدت في آخر اللهمَّ عوضاً من حرف النداء «يا» » [بدائع التفسير: ١/ ٤٨٣].

وبيّن ابن القيم رحمه الله تعالى: أن العبد يسأل ربّه تبارك وتعالى باسم «اللهمَّ»، الذي يسأل العبد به ربه سبحانه في كل حاجة، وكل حال، إيذاناً بجمع أسمائه تعالى وصفاته. فإذا قال السائل: اللهم إني أسألك، كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته. فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم، إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «ما أصاب عبداً قط هَمٌّ ولا حَزَن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيديك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدْل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً. قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، الحنّان المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى، كما ذُكر في غير هذا الموضع.

والدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك، وذُلِّك. فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر أحداً من الأمرين.

فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل.

وهذه عامة أدعية النبي ﷺ.

وفي الدعاء الذي علمه صدِّيقَ الأمة رضي الله عنه ذكر الأقسام الثلاثة. فإنه قال في أوله: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً» وهذا حال السائل، ثم قال: « وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا حال المسؤول، ثم قال: « فاغفر لي» فذكر حاجته، وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه.

وهذا القول الذي اخترناه قد جاء عن غير واحد من السلف. قال الحسن البصري: «اللهم» مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قوله: «اللهم» فيها تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله تعالى، وقال النضر بن شميل: من قال: «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه. [بدائع التفسير: ١/ ٤٩١-٤٩٣].

الإسم الثاني والثالث
الرحمن الرحيم

١- معنى اسمي الله: «الرحمن الرحيم»:

الرحمن الرحيم اسمان لطيفان دالان على الرحمة، يقول ابن القيم فيهما: «الرحمن الذي الرحمة وَصْفُهُ، والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجئْ رَحمنٌ بعباده، ولا رحمنٌ بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُلئ بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، وقد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ: «فهو عنده على العرش». فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

[طه:٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم». [مدارج السالكين: ١/ ٥٧-٥٨].

وكان ابن القيم قال قبل ذلك: «صفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنّة، والرأفة واللطف، أخص باسم الرحمن». [مدارج السالكين: ١/ ٥٦].

٢- الرحمن متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا «من أعطى اسم «الرحمن» حقَّهُ عرفَ أنه متضمِّنٌ لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمُّنِهِ إنزالَ الغيثِ وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصلُ به حياةُ القلوب والأرواح أعظمُ من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدركَ منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك». [مدارج السالكين:٣١].

٣- الجمع بين الرحمن والرحيم:

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما – السهيلي – وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خَلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] و ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجئ قط (رحمن بهم)، فعُلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجلِ لك صورتها. [بدائع الفوائد: ١/ ٤٢].

٤- الرحمة المضافة إلى الله نوعان:

«الأول: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله.

الثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها.

فمن الأول قول الرب في الحديث الصحيح للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء» فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، ومنه تسمية الله للمطر رحمة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]. وعلى هذا فلا يمنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً، وهو قول الداعي: «اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك»، والمراد بها الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، والجنة وإن سميت رحمة، لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة، ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة». [بدائع الفوائد باختصار: ٢/ ١٥٨].

٥- رحمة الله قريب من المحسنين:

أورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] ثم قال: «فيه تنبيهٌ ظاهرٌ على أن فعلَ هذا المأمور به هو الإحسانُ المطلوبُ منكم، ومطلوبُكم أنتم من الله هو رحمته، ورحمتُه قريبٌ من المحسنين، الذين فعلوا ما أُمِروا به من دعائه خوفاً وطمعاً، فقربُ مطلوبكم منكم وهو الرَّحمةُ، بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسانُ، الذي هو في الحقيقة إحسانٌ إلى أنفسكم، فإن الله تعالى هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، له دلالةٌ بمنطوقه، ودلالةٌ بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه؛ فدلالتُه بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القربَ مستحقٌّ بالإحسان، فهو السببُ في قربِ

الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بُعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاثُ دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختصَّ أهلُ الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسانٌ من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاءَ من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحْسَنَ إليهم برحمته.

وأما من لم يكنْ من أهل الإحسان فإنه لما بَعُدَ عن الإحسان بعدَتْ عنه الرحمةُ بُعداً ببعدٍ، وقُرباً بقرب، فمن تقرَّب بالإحسان، تقرَّب اللهُ إليه برحمته، ومن تباعَدَ عن الإحسان، تباعَدَ اللهُ عنه برحمته، واللهُ سبحانه يحبُّ المحسنينَ، ويُبْغِضُ من ليس من المُحسنينَ، ومن أحبَّه الله فرحمته أقربُ شيءٍ منه، ومن أبغضَهُ فرحمته أبعدُ شيءٍ منه.

والإحسانُ ههنا هو على المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظمُ الإحسان الإيمانُ والتوحيدُ والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتَّوَكُّل عليه، وأن يعبدَ اللهَ كأنه يراهُ إجلالاً ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً، فهذا هو مقامُ الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، وإذا كان هذا هو الإحسانَ فرحمةُ الله قريبٌ من صاحبه، فإن الله إنما يرحمُ أهل توحيده المؤمنين به». [بدائع الفوائد: ٢/ ٨٦١].

٦- الله وسع كل شيء رحمةً وعلماً:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وقد وَسِعَ رَبنا كلّ شيء رحمةً وعلماً فوسعت رحمته كلّ شيء، وأحاطَ بكل شيء علماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٧٣].

وبيّن ابن القيم رحمه الله أن المعنى المراد بـ (سعة رحمة الله) فقال: «سعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع

الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء». [الجواب الكافي:١٦٨].

وقال في موضع آخر: «ثم يشهد عند ذكر اسم «الرحمن» جلّ جلاله رباً محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحبباً إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمةً وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته؛ وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته؛ وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته، فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده، كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة.

ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقام بها بين يدي ربه، وأهّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه، وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به». [الصلاة:١٧٣-١٧٤].

٧- من تمام رحمة الله بعبده تسليط أنواع البلاء عليه:

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«من تمام رحمة أرحمِ الراحمين: تَسْليطُ أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعهُ من كثيرٍ من أغراضهِ وشهواته: من رحمتِهِ به،

ولكنَّ العبدَ لجهلِه وظُلمه يتَّهم ربهُ بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليهِ بابتلائهِ وامتحانهِ» [إغاثة اللهفان:٢/ ١٧٤].

٨- من كمال رحمة الله تعريف العباد نفسه وصفاته:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «من كمال رحمته أن يعرف عباده نفسه وصفاته، ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة، فكانت رحمته مقتضية لها» [بدائع التفسير: ١/ ١٧١].

٩- وجه تقديم الغفور على الرحيم:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «وأما تقديم «الغفور» على «الرحيم»؛ فهو أولى بالطبع؛ لأنَّ المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تُطْلب قبل الغنيمة. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعَمْرو بن العاص: «أَبْعَثُكَ وَجْهاً يُسَلِّمُكَ اللهُ فِيْهِ ويُغْنِمُكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ زَعْبَةً مِنَ المَالِ»، فهذا من الترتيب البديع، بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ:٢] في سبأ فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإمَّا بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلّفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصُّهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨] وكقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]». [بدائع الفوائد: ١/ ١١٢].

١٠- موقع «الرحمن» في «بسم الله الرحمن الرحيم»:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى «أن قوماً استبعدوا أن يكون «الرحمن» نعتاً لله تعالى من قولنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقالوا: الرحمن علم، والأعلام لا يُنعت

بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم الله، قالوا: ويدل على هذا أن «الرحمن» علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره، فليس هو كالصفات التي هي العليم والقدير، والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدل عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله، كقوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] و ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [الرحمن:١-٢] و ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ [الملك:٢٠] وهذا شأن الأسماء المحضة، لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان، لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين، فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠] ولم يقولوا: وما الله؟ ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به الثناء، وكذلك الرحيم.

إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية، فإن التثنية في الحقيقة تضعيف، وكذلك هذه الصفة، فكأنّ غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر، فكان اللفظ مضارعاً للفظ التثنية، لأن التثنية ضعفان في الحقيقة، ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا: الحكمان والعلمان، وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد، فقالوا: اشترك باب فعلان وباب التثنية، ومنه قول فاطمة: «يا حسنان يا حسينان» برفع النون لابنيها، ولمضارعة التثنية امتنع جمعه، فلا يقال: غضابين، وامتنع تأنيثه فلا يقال: غضبانة، وامتنع تنوينه، كما لا تُنوّن نون المثنى، فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظاً ومعنى». [بدائع الفوائد:١/ ٤٠].

الاسم الرابع

رب العالمين

١- التعريف باسم الله الرب سبحانه وتعالى:

قال ابن القيم في التعريف باسم الله الرب عز وجل: «الربُّ هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله هو الرب بهذه الاعتبارات كلها». [بدائع الفوائد: ٤/ ١١٣، طبعة دار الخير].

وقال أيضاً: «الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع، الضار النافع، المقدم المؤخر، الذي يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ، ويُسعد من يشاءُ ويُشقِي من يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقُّه من الأسماء الحسنى» [بدائع الفوائد:١/ ٧٨١].

وقال في موضع ثالث معرفاً برب العالمين: «وربوبيته للعالم تتضمن بصره فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذلّ، ويصرف الأمور بمشيئته، وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وألوهيته وملكه» [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٢٢٣].

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى بأنه ربُّ الناسِ، فقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١] هذه الإضافة وهي إضافة الربوبية على الناس، كما يقول ابن القيم متضمنة

«لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم، هذا معنى ربوبيته لهم، وهذا يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم» [بدائع الفوائد:٢/ ١١].

وقال ابن القيم معرفاً بالرب تبارك وتعالى: «اسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء، والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهاهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع والأمر والنهي، مظهره وقيامه: من صفة الألوهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بألوهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى» [بدائع التفسير: ١/ ١٤١].

٢- شهود قلب العبد اسم الرب تبارك وتعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وشاهد مَنْ ذكر اسمه (رب العالمين) قيوماً قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على

عرشه، وتفرد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩] لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها قائماً بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه» [الصلاة:١٧٣].

٣- توحيد الربوبية حجة على من أنكر توحيد الألوهية:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «توحيد الربوبية حجة على من أنكر توحيدَ الأُلوهية، فحقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّهم عليه إذا فعلوا ذلك ألاَّ يُعذِّبهم، وأن يُكرمهم إذا قَدِموا عليه، وهذا كما أنه غايةُ محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذّته ونعيمه، فهو أيضاً محبوبُ الرب من عبده، ومطلوبُه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته، أعظم من فَرَحِ مَن وجد راحلته الَّتي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة» [طريق الهجرتين:١٠٩].

الاسم الخامس والسادس

الملك والمالك

١- تعريف اسم الله «الملك» تبارك وتعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى معرفاً بهذا الاسم الجليل: «وأما الملك فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع.. إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله سبحانه الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه، وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل، والإعزاز والإذلال، فلا بدَّ من وجود ما يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر» [شفاء العليل:٢/ ٦٥٢].

وقال ابن القيم في موضع ثالث: «الله سبحانه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويهين ويكرم، ويعزُّ ويذلُّ» [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٠٧].

٢- الملك الحقيقي ثابت لله سبحانه بكل وجه:

قال ابن القيم رحمه الله في ذلك: «من أسماء الله الملك، ومعنى الملك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه، وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال، إذ من المحال

ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يعز ويذلّ، ويهين ويكرم، وينعم وينتقم، ويخفض ويرفع، ويرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ويتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيه؟ فأي مُلك في الحقيقة لمن عُدم ذلك، وبهذا يتبين أن المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه، ويأنف أحدهم أن يقال في ملكه وأميره ما يقوله هو في ربه، فصفة ملكه الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلا به، والكل منه سبحانه، فلم يتوقف كمال ملكه على غيره، فإن كل ما سواه مستند إليه متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه». [شفاء العليل ٢/ ٦٠٩-٦١٠].

٣- كمال ملك الله مقارن لحمده:

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «كمال ملك الله أن يكون مقارناً لحمده و﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ [التغابن:١]، والرسل وأتباعهم أثبتوا له الملك والحمد، وهذا مذهب من أثبت له القدر والحكمة وحقائق الأسماء والصفات، ونزَّهه عن النقائص ومشابهة المخلوقات، ويوحشك في هذا المقام جميع الطوائف غير أهل السنّة، الذين لم يتحيزوا إلى نِحلة، ولا مقالة، ولا متبوع من أهل الكلام». [شفاء العليل: ٦٠٩-٦١٠].

٤- الملك والحمد في حق الله متلازمان:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «المقصودُ أن الملك والحمد في حقّه متلازمان، فكلّ ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمودٌ في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيلُ خروجُ شيءٍ من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيلُ خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا يحمدُ سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبّه عباده على أنَّ مصدرَ خَلْقِهِ وأمره عن حمده، فهو محمودٌ على كُلّ ما خلقه وأمر

به حمدَ شُكْرٍ وعُبوديّة، وحَمْد ثناءٍ ومَدْح، ويجمعهما التبارك، فتبارك اللهُ يشملُ ذلك كُلّه، ولهذا ذكر هذه الكلمة عَقيبَ قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] ». [طريق الهجرتين:٢٣٠].

٥- الخلق والأمر والثواب والعقاب لازم لصفة الملك:

قال ابن القيم في هذا: «إذا أعطيت اسم «الملك» حقّه، ولن تستطيع علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع، فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياةُ الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته ورضاه، وغضبه، واستواؤه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق» [التبيان:٤٤-٤٥].

وقال ابن القيم: «الملك يقتضي التصرف بالقول، كما أن الملك يقتضي التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء، والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله» [بدائع التفسير:١/ ١٧١].

وقال في موضع آخر: «حقيقة الملك إنما تتمُّ بالعطاءِ والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز، وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

يغفر ذنباً ويفرّج كَرْباً، ويكشف غمّاً، وينصر مظلوماً، ويأْخذُ ظالماً، ويفكّ عانياً، ويُغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعزّ ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة ويأْتي بأخرى، ويداول الأيامَ بين الناس، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يسوقُ المقاديرَ التي قدّرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها؛ فلا يتقدَّم شيءٌ منها عن وقته ولا يتأخر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرِّفُ في الممالك كلّها وحده تصرُّفَ ملك قادر قاهر عادل رحيم، تامّ الملك لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرُّفه في المملكة دائرٌ بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك». [طريق الهجرتين:٢٢٨-٢٢٩].

٦- شهود قلب العبد مجد الرب تبارك وتعالى:

المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكاً قاهراً، قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً، لعزته تعنو الوجوه وتسجد، وإذا لم تعطل حقيقة صفة الملك أطلعته على شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لملكه وجحد له، فإن المَلِكَ الحقَّ التامَّ المُلْكِ: لا يكون إلا حياً قيوماً سميعاً بصيراً مدبراً قادراً متكلماً آمراً ناهياً، مستوياً على سرير مملكته، يرسل إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيرضى على من يستحق الرضا، ويُثيبه ويكرمه ويدنيه، ويغضب على من يستحق الغضب، ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعطي من يشاء، ويقرب من يشاء، ويقصي من يشاء، له دار عذاب، وهي النار،

وله دار سعادة عظيمة، وهي الجنة، فمن أبطل شيئاً من ذلك، أو جحده وأنكر حقيقته، فقد قدح في ملكه سبحانه وتعالى، ونفى عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره، فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلي مجد الرب تعالى في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] [الصلاة:١٧٤].

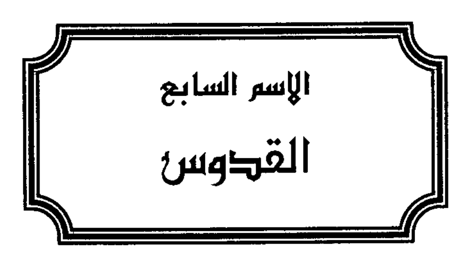
٧- الفرق بين الملك والمالك:

قال ابن القيم في هذا: «المالك المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره، فمن ظن أنه خلق خلقه عبثاً، لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه ولم يقدِّره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ [الأنعام:٩١]، فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله ولم يقدره حق قدره.

وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته، وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثاً، وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]. قال الشافعي رحمه الله: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب.

والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي، وهو الثواب والعقاب، ثم تأمل قوله

تعالى بعد ذلك: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة:٣٧-٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها، حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشراً سوياً فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثاً، ويتركها سدى بعد كمال خلقها» [بدائع الفوائد:١٣٩].



معنى اسم الله «القدوس»:

من أسماء الله الحسنى «القدوس»، وقد عرَّف ابن القيم هذا الاسم، وتحدث عنه بقوله: «القدوس في خلقه وفعله، وخلقُه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله.

ولهذا تنزَّه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شراً، فعلم أن الشر ليس إليه».

والقدوس المنزَّه عن كل شر ونقص وعيب، كما قال أهل التفسير، وهو الطاهر من كل عيب، المنزَّه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة.

وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة، ومنه بيت المقدس، لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمَّهُ لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه.

ومنه سميت الجنة حظيرة القدس لطهارتها من آفات الدنيا، ومنه سمي جبريل روح القدس لأنه طاهر من كل عيب.

ومنه قوله الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] فقيل المعنى: ونقدس أنفسنا لك، فعدي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

قال ابن جرير: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك. قال: وقال بعضهم: نعظمك ونمجدك، قاله أبو صالح، وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهى. [شفاء العليل: ٢/ ٥١٠، ٥١١].



١- السلام اسم من أسماء الله تعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «السلام هو الله تعالى» [بدائع الفوائد: ١/ ٢٠ طبعة دار الخير] وقال أيضاً: «السلام اسم من أسماء الرب تبارك وتعالى» [أحكام أهل الذمة:١٩٣، بدائع الفوائد: ٢/ ١٥٥ طبعة دار الخير].

٢- الله – تبارك وتعالى – أحق بالسلام من كل ما سواه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «السلام اسم مصدر في الأصل – كالكلام والعطاء – بمعنى السلامة، والرب تعالى أحقُّ به من كل ما سواه، لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فإنّ له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك؛ والسلام يتضمّن سلامة أفعاله من العبث والظلم وخلاف الحكمة، وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة ذاته من كل نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم؛ فاسم «السلام» يتضمن إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه، وهذا معنى: «لا إله إلا الله، والله أكبر» فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات التي يثنى بها على الرب جل جلاله». [أحكام أهل الذمة: ١٩٣].

٣- السلام ملازم لكل صفات الله عز وجل:

ومن بعض تفاصيل ذلك أنه الحيّ الذي سلمت حياته من الموت والسِّنَة والنوم والتغير، القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب والإعياء والعجز

عما يريد، العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال ذرة أو يغيب عنه معلوم من المعلومات؛ وكذلك سائر صفاته على هذا، فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب؛ وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام؛ وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه؛ وقدرته سلام أن ينازعها العجز؛ ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها؛ وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم، بل تمَّت كلماته صدقاً وعدلاً؛ ووعده سلام أن يلحقه خُلْفٌ، وهو سلام أن يكون قبله شيء أو بعده شيء أو فوقه شيء أو دونه شيء، بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء.

وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه؛ ومغفرته سلام أن يبالي بها أو يضيق بذنوب عباده أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة الناس؛ ورحمته وإحسانه ورأفته وبِرُّه وجوده وموالاته لأوليائه وتحبُّبُه إليهم وحنانه عليهم وذكره لهم وصلاته عليهم سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم أو تكثُّر بهم. وبالجملة فهو السلام من كل ما ينافي كلامه المقدس بوجه من الوجوه. [أحكام أهل الذمة: ١٩٣-١٩٤].

٤- اسم السلام متضمن للكمال السالم من كل ما يعتاده:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضادّه، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه وجدتَه مستلزماً لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبت القضاء والقدر، وعلوّ الرب تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعلانياتهم، وتفرّده بتدبيرهم، وتوحده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو السلام الحق من كل وجه كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولَمَّا كان سبحانه موصوفاً بأن له يَدَين لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حُسْنَى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال، وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا، وتحيتهم يوم لقائه؛ ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى قال الله له: «اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة، فاستمع ما يحيّونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك» وقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:١٢٧] قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:٢٥] ». [أحكام أهل الذمة: ١٩٤-١٩٥].

٥- الله السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار:

وتوسع ابن القيم فيما ذكره في الموضوع السابق من استحقاقه للسلام، فقال: «إطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه هو أولى من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كلِّ عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعلٍ واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحقُّ من كل وجه وبكل اعتبار، فعُلِمَ أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزَّه به نفسه ونزهه به رسوله، فهو السلامُ من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء، والسَّمِي والمماثل، والسلام من الشريك، كذلك إذا نظرتَ إلى أفراد صفات كماله، وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها، فحياته سَلام من الموت ومن السِّنَة والنوم، وكذلك قيُّوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيانٍ أو حاجةٍ إلى تذكُّر وتفكُّر، إرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من

الكذب والظلم، بل تمت كلماته صِدْقاً وعدلاً، وغِناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجهٍ ما، بل كلُّ ما سواه محتاج إليه، وهو غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، وملكُه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مُظاهِر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلامٌ من كل مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحِلْمه وعَفْوه وصَفْحه ومغفرته وتجاوزه سلاَمٌ من أن تكون عن حاجة منه أو ذُلٍّ أو مُصانعة كما يكون من غيره، بل هو مَحْض جُوْده وإحسانه وكرمه.

وكذلك عذابه وانتقامه وشدةُ بَطْشه وسرعة عقابه سَلامٌ من أن يكون ظلماً أو تشفِّياً أو غِلْظة وقسوة، بل هو مَحْض حكمته وعدله ووضعه الأشياءَ مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سَلاَم من العبث والجَوْر والظلم، ومِنْ تَوَهُّمِ وقوعِهِ على خلاف الحكمة البالغة، وشرعُه ودينُه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب، وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعُه كلُّه حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سَلاَم من كونه مُعاوضة أو لحاجةٍ إلى الْمُعْطَى. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضةٍ ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعُلُوُّه على عرشه سَلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحَمَلَته محتاجون إليه، فهو الغنيُّ عن العرش وعن

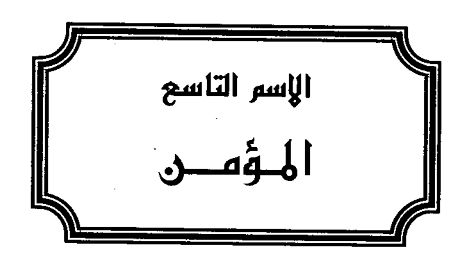
حَمَلَته، وعن كلِّ ما سواه، فهو استواءٌ وعُلُوٌّ لا يشوبُه حَصْر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عَرْش ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات مُلْكه وقَهْره من غير حاجةٍ إلى عرش ولا غيره بوجهٍ ما، ونزولُه كل ليلة إلى سماءِ الدنيا سلام مما يضاد علوَه، وسَلام مما يضاد غِناه، وكماله سَلام من كلِّ ما يتوهَّم معطِّل أو مشبِّه وسَلام من أن يصير تحت شيءٍ أو محصوراً في شيء - تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله. وغناهُ وسمعُه وبصرُه سَلاَمٌ من كلِّ ما يتخيَّله مشبِّه أو يتقوَّله معطِّل.

وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذُلٍّ كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسانٍ وبرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء:١١١]، فلم ينفِ أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له وليٌّ من الذُّل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سَلاَم من عوارض محبة المخلوق للمخلوق، من كونها محبة حاجة إليه أو تملُّق له، أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوَّله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سَلاَم عما يتخيله مشبِّه أو يتقوله معطِّل.

فتأمل كيف تضمن اسمه «السلام» كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى، وكم ممن يحفظ هذا الاسم ولا يدري ما تضمَّنه من هذه الأسرار والمعاني، والله المستعان المسؤول أن يوفق لتعليقٍ على الأسماء الحسنى على هذا النَّمط إنه قريب مجيب».

[بدائع الفوائد:٢/ ٦٠٢-٦٠٥].

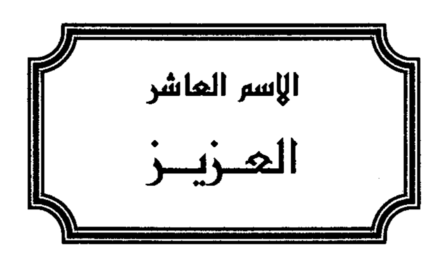


الإسم التاسع

المؤمن

المؤمن من صفات الله تبارك وتعالى، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «سمى نفسه بالرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن العزيز الجبار» [الصواعق المرسلة:١/ ٢٢٠ وانظر الصواعق أيضاً:٣/ ١١١٤].

وقال ابن القيم أيضاً في اسم الله المؤمن: «ومن أسمائه تعالى «المؤمن» وهو – في أحد التفسيرين – المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صَدَّق رسله وأنبياءه فيما يلقوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دلّ بها على صدقهم قضاء وخَلْقاً، فإنه سبحانه أخبر – وخبره الصدق، وقوله الحق – أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلَّغتهُ رُسُلُه حقٌّ، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣] أي: القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فصلت:٥٢] ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣] ». [مدارج السالكين:٣/ ٥٠٦].



الاسم العاشر
العزيز

١- المعنى المراد باسم الله العزيز:

من أسماء الله الحسنى العزيز، يقول ابن القيم: «اسمه العزيز الذي له العزة التامة، ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة» [شفاء العليل:٢/ ٥١١].

وقال أيضاً: «العزة يراد بها ثلاث معانٍ: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر، والرب - تبارك وتعالى - له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث» [مدارج السالكين:٣/ ٢٨٥].

وقال أيضاً: «اسم الله «العزيز» الذي له العزة التامة، ومن تمام عزته براءته من كل سوء وشرّ وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة» [شفاء العليل:٢/ ٥١١].

٢- العزيز هو الذي يقضي بما يشاء:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «الله هو العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكمَ على العبد وقضَى عليه، بأن قَلَّبَ قلبه وصَرَّف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه.. وجعلهُ مريداً شائياً لما شاء منه العزيزُ الحكيمُ، وهذا من كمالِ العزةِ، إذ لا يقدرُ على ذلك إلاّ الله، وغايةُ المخلوق: أن يتصرفَ في بدنك وظاهرك، وأما جَعْلُكَ مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريدُه: فلا يقدرُ عليه إلاّ ذو العزةِ الباهرةِ.

فإذا عرفَ العبدُ عِزَّ سيده ولاَحَظَهُ بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له، لأنه يصيرُ مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفةِ عزتهِ في قضائه: أن يعرفَ أنه مدبَّرٌ مقهورٌ، ناصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلاّ بعصمتهِ، ولا توفيقَ له إلاّ بمعونتِه، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضةِ عزيزٍ حميد.

ومن شهودِ عزتهِ أيضاً في قضائه: أن يشهدَ أن الكمالَ والحمدَ، والغَناءَ التامَ، والعزةَ، كلَّها لله، وأنَّ العبدَ نفسَه أولى بالتقصير والذم، والعيبِ والظلمِ والحاجةِ، وكلما ازداد شهودُه لِذُلِّهِ ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهودُه لعزة الله وكماله، وحمدِه وغناه. وكذلك بالعكس، فنقصُ الذنبِ وذلتُه يطلعه على مشهدِ العزة.

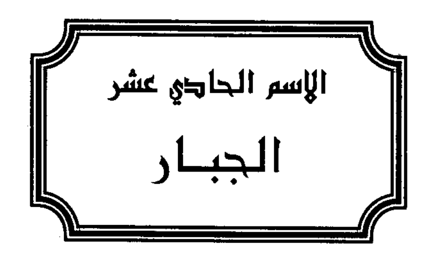
ومنها: أنَّ العبدَ لا يريدُ معصيةَ مولاه من حيث هي معصية، فإذا شهدَ جريانَ الحُكم، وجعلَه فاعلاً لما هو غير مختار له، مريد بإرادته ومشيئته واختياره، فكأنه مختار غير مختار، مريد غير مريد، شاء غير شاءٍ، فهذا يشهدُ عزةَ الله وعظمَته، وكمالَ قدرته». [مدارج السالكين: ١/ ٢٣٦-٢٣٧].

٣- تقديم العزيز على الحكيم وتقديمه على العليم:

في القرآن الكريم تقديم العزيز على الحكيم، وقال ابن القيم مبيناً وجه ذلك: «تقدم العزيز على الحكيم، لأنه عز، فلما عزَّ حكم، وربما كان هذا من تقديم السبب على المسبب» [بدائع الفوائد:١/ ٥٩].

وقدم الحق تبارك وتعالى العزيز على العليم فقال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦] قال ابن القيم: «تضمن هذان الاسمان صفتي القدرة والعلم وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله، لأن القدرة هي قدرة الله كما قال الإمام أحمد بن حنبل، فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، أو أن يشاء ما لا يكون، فكانت عزته تبطل ذلك» [بدائع الفوائد:١/ ١٣٣].

وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] «أي مصدر ذلك وسببه وغايته، صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة تمام القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء ويأمر، وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر» [الجواب الكافي:١٦٨].



١- التعريف بالجبار:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن بعض أهل العلم فسروا الجبار بالذي يجبر الكسير ويغني الفقير، ولكنه لم يرتض هذا التفسير مع صحة القول في نفسه، وصحح أنه من الجبروت، فهو الذي يجبر الناس ويقهرهم، وفي ذلك يقول:

«الجبار من أسماء الرب تعالى، فقد فسّر بأنه الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، والرب تبارك وتعالى كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبار، ولهذا قرنه باسمه، المتكبر، وإنما هو من الجبروت، وكان النبي ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» [عزاه محقق الكتاب إلى أبي داود والترمذي والنسائي]، فالجبّار اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر:٢٣]: هو العظيم، وجبروت الله عظمته.

والجبَّار من أسماء الملوك، والجَبْر المَلك، والجبابرة الملوك، قال الشاعر:

وأَنْعِمْ صَبَاحاً أيها الجَبْرُ

أي: أيها الملك.

وقال السدي: هو الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد، وعلى هذا فالجبار معناه القهار، وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبّار لأنه جبر الخلق على ما أراد،

والخلق أدق شأناً من أن يعصوا رَبَّهم طرفة عين إلا بمشيئته، قال الزجاج: الجَبَّار الذي جبر الخلق على ما أراد، وقال ابن الأنباري: الجَبَّار في صفة الربِّ سبحانه الذي لا يُنال، ومنه قولهم: نخلة جَبَّارة، إذا فاتت يد المتناول». [شفاء العليل:١/ ٣٦٦].

٢- الجبار في صفة الرب ترجع إلى ثلاثة معانٍ:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الجبار في صفة الربِّ سبحانه وتعالى ترجع إلى ثلاثة معانٍ: الملك والقهر والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي، سميت جبَّارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجَبَّار مقروناً بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة يتضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي: الخالق البارئ المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى».

٣- اتصاف المخلوق بصفة الجبر ذم له:

قال ابن القيم: «اتصاف المخلوق بالجَبَّار ذَمٌّ له ونقص، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥] أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان، وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «يحشر الجبَّارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ، يطؤهم الناس» [عزاه محقق الكتاب إلى البزار وأبي القاسم بن الصرصري، وقال العراقي: إسناده حسن] ». [شفاء العليل: ١/ ٣٦٦-٣٦٧].

الإسم الثاني عشر إلى الرابع عشر

الكبير المتكبر المتعالي

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن من أسماء الله تعالى: «الكبير» و «المتكبر». قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن السوء، وقال أيضاً: الذي تكبر عن السيئات. وقال مقاتل: المتعظم عن كل سوء، وقال أبو إسحاق: الذي تكبر عن ظلم عباده» [شفاء العليل:٢/ ٥١١].

وذكر ابن القيم أن اسم «الملك» له من الأسماء الحسنى: «العزيز الجبار المتكبر، الحكم العدل». [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢].

وذكر أن «المتكبر» اسم من أسماء التعظيم، قال: «الجبار اسم من أسماء التعظيم، كالمتكبر والملك والعظيم والقهار». [شفاء العليل: ١/ ٣٦٦].

وذكر ابن القيم «أن الله وصف نفسه بصفات، وسمى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، فسمى نفسه بالرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر». [الصواعق المرسلة: ١/ ٢٢٠].

وذكر اسم الله «المتعالي» في أكثر من موضع من غير شرح وتفسير، فمن ذلك قوله: «وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز الجبار الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل، الكبير الحسيب، المجيد الوالي المتعالي مالك الملك» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

وقال: «أهل السنّة أثبتوا له العلو والعظمة بكل اعتبار، ومثل هذه وصفه سبحانه بأنّه الكبير المتعالي، فالكبير يوصف به الذات، وصفاتها القائمة بها» [الصواعق المرسلة:٤/ ١٣٧٥].

الاسم الخامس عشر والسادس عشر

الخالق والخلاق

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله سبحانه له الأسماء الحسنى، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر، لا بدَّ من ترتبه عليه، كترتب المرزوق والرزق على الرازق...، وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها، فكما أن اسمه الخالق يقتضي مخلوقاً، والباري يقتضي مبروءاً، والمصور مصوراً ولا بد» [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٦١].

وقال في موضع آخر: «شهدت مصنوعات الله ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء، أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنعه» [مفتاح دار السعادة:٢/ ٦٢].

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] ثم قال: «والمعنى: والله خلقكم وخلق الذي تعملونه، وتنحتونه من الأصنام، فكيف تعبدونه وهو مخلوق لله» [بدائع التفسير:٤/ ١٨].

وأورد رحمه الله قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١] ثم قال: «كونه خلاّقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق» [بدائع التفسير:٣/ ٤٨١].

وقال ابن القيم في [شفاء العليل:١/ ٣٩٢]: «الخالق المصور، فإن استعملا مطلقين غير مقيدين لم يطلقا إلا على الرب سبحانه، كقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾

[الحشر:٢٤] وإن استعملا مقيدين أطلقا على العبد». وقال ابن القيم في هذا الموضع من «شفاء العليل» في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] أي أحسن المصورين والمقدرين، ونقل عن مجاهد قوله في الآية: «يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين» ونقل عن الليث قوله: «رجل خالق، أي: صانع» ». [شفاء العليل:١/ ٣٩٢].

والخالق يطلق على الله باعتبار الفعل، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «من أسماء الله ما يطلق على الله باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي المميت» [بدائع الفوائد: ١/ ١٤٨، طبعة دار الخير].

«والخلاق من أسماء الله الحسنى المقتضي لوجود الخلق» [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٥٦٤].

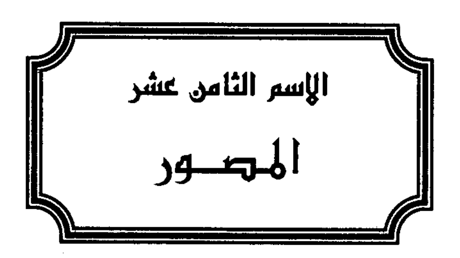
وأفاد ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن أهل الإسلام، بل وأهل الملل كلهم متفقون على أن الله سبحانه وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق موجود بعد عدمه، وليس معه غيره من المخلوقات يكون وجوده مساوياً لوجوده» [شفاء العليل:٢/ ٤٥٦].

الاسم السابع عشر

البـارئ

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن: «البارئ لا يصح إطلاقه إلا على الله سبحانه، فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها، والعبد لا تتعلق قدرته بذلك، إذ غاية مقدوره التصرف في بعض صفات ما أوجده الربُّ تعالى وبرأه، وتغييرها من حال إلى حال على وجه مخصوص لا تتعداه قدرته، وليس من هذا بريت القلم، لأنه معتل لا مهموز، ولا برأت من المرض، لأنه فعل لازم غير متعد» [شفاء العليل: ١/ ٣٩٣].

وأورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٣] ثم بيّن: «أن البقاء في الآية هو بقاء الرب، ودوام وجوده» ثم بين السبب في ذكر مؤمني السحرة له بقوله: «إنما ذكره مؤمنو السحرة في هذا المكان، لأن عدو الله فرعون توعدهم على الإيمان بإتلاف حياتهم، وإفناء ذواتهم، فقالوا له: وإن فعلت ذلك، فالذي آمنا به، وانتقلنا من عبوديتك إلى عبوديته، ومن طلب رضاك والمنزلة عندك إلى طلب رضاه والمنزلة عنده – خير منك وأدوم، وعذابك ونعيمك ينقطع ويفرغ، وعذابه هو ونعيمه وكرامته لا تنقطع ولا تبيد، فكيف نؤثر المنقطع الفاني الأدنى، على الباقي المستمر الأعلى» [مدارج السالكين:٣/ ٤١٨].



الاسم الثامن عشر

المصور

المصور من أسماء الله الحسنى، وقد أورد ابن القيم النص الدال على هذا الاسم، وهو قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر:٢٤] وبيّن بعد إيراده لهذا النص أن «البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق» [شفاء العليل: ١/ ٣٦٦].

وبيّن رحمه الله تعالى في كتابه [شفاء العليل: ١/ ٣٩٢] أيضاً أن اسميه: «الخالق المصور إن استعملا مطلقين غير مقيدين لم يطلق إلا على الرب سبحانه، كقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر:٢٤] وإن استعملا مقيدين أطلقا على العبد» .

وبيّن ابن القيم رحمه الله في [طريق الهجرتين:٥٩٥] أن إطلاق اسم «الخالق البارئ المصور على الله أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجئ هذه في أسمائه الحسنى» .

وذكر ابن القيم: «أن اسم الله الخالق يقتضي مخلوقاً، والبارئ يقتضي مبروءاً، والمصور يقتضي مصوراً، ولا بد». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٦١].

الإسم التاسع عشر والعشرون
الغفور الودود

١- معنى اسمي الله: «الغفور الودود»:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه، ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يودّ من تاب إليه، وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً، أي: المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه واداً لأوليائه ومودوداً لهم، فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان» [التبيان:٥٩-٦٠].

٢- الحكمة من تقديم الغفور على الرحيم:

قدّم الله في كتابه الغفور على الرحيم، إلا في موضع واحد، وهو في سبأ، فإنه قدّم الرحيم على الغفور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ:٢] وقد بيّن السهيلي فيما نقله عنه ابن القيم الحكمة من وراء ذلك، فقال:

«وأما تقديم الغفور على الرحيم، فهو أولى بالطبع، لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تُطلب قبل الغنيمة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعمرو ابن العاص: «أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك، وأزعب لك زعبة من المال» [قال محقق الكتاب: رواه أحمد في مسنده ٢٩/ ٢٩٨ الحديث (١٧٧٦٣) و٢٩/ ٣٣٧ الحديث (١٧٨٠٢)، وصحيح ابن حبان ٨/ ٧ الحديث (٣٢١١)، والنهاية لابن الأثير مادة (زعب)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]، فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢] فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿ فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن:٦٨] وكقوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨]، ومما قدم بالفضل قوله: ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٣] لأن السجود أفضل وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

[بدائع الفوائد:١/ ٦٠ طبعة دار الخير].

وعقب ابن القيم على ما نقله عن السهيلي قائلاً: «ما ذكره من تقديم الغفور على الرحيم فحسن جداً، وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول (سبأ) ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢]، فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله، مستلزم لها، كما هو متضمّن، لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ:١] ثم عقّبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير

منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقه لذاته وكمال أوصافه، وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبداً». [بدائع الفوائد:١/ ٧٣ طبعة دار الخير].

٣- أثر اسمه الغفور والغفار في عباده:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر..

فلو لم يكن في عباده من يخطئ ويُذنب ليتوب عليه، ويغفر له، ويعفو عنه، لن يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها...، فأسماؤه الغفار التواب تقتضي مغفوراً له، وما يغفره له، وكذلك يتوب عليه» [مفتاح دار السعادة:٢/ ٢٦١].

٤- الودود بمعنى وادٌّ أو بمعنى مودود:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى معرفاً باسم الله الودود: «الودود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المَوَدَّة، واختُلِف فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٍّ، كضَرُوبٍ بمعنى ضارب، وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ، ونؤُوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفور بمعنى غافر، وشكورٍ بمعنى شاكر، وصبورٍ بمعنى صابر.

وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الوَدود: الحبيب، والأوّل أَظهر، لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج:١٤]، وبالرحيم في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود:٩٠] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يحب التوّابين، وأنه يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه». [روضة المحبين:٤٦].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع آخر: وأما الودود، ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يُحب أنبياءه ورسلَه وأولياءه وعبادَه المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوبُ الذي يستحق أن يُحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته». [جلاء الأفهام:٣١٥].

٥- لما كان الحب يتعلق بالذات والصفات كان من أسمائه الودود:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «إن الخوف يتعلق بالأفعال، وأما الحب فإنه يتعلق بالذات والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنّة، وأما الحبُّ فيزداد، ولما كان الحب يتعلق بالذات كان من أسمائه سبحانه الودود، قال البخاري في صحيحه: «الحبيب» » [طريق الهجرتين:٥١٤].

٦- من ظهر له اسم الله الودود وكشفت له معانيه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «من ظَهر له اسمُ «الودود» - مثلاً - وكشفَ له عن معاني هذا الاسمِ، ولفظِهِ، وتعلقه بظاهر العبدِ وباطِنِهِ: كَان الحالُ الحاصل لَهُ من حضرةِ هذا الاسمِ مُناسِباً لَهُ، فَكَانَ حالُ اشتغال حبٍّ وشوقٍ، ولذة مناجاةٍ، لا أحلى منها ولا أطيبَ، بحسب استغراقه في شهودِ معنى هذا الاسم، وحظه من أثره.

فإن «الودودَ» - وإن كان بمعنى المودود، كما قال البخاريُّ في صحيحهِ «الودودُ» الحبيبُ - واستغرقَ العبدُ في مطالعة صفات الكمال، التي تدعو العبدَ إلى حب الموصوف بها، أثمرَ له صفاءَ علمه بِها، وصفاءَ حاله في تَعبدِهِ بمقتضاها: ما ذكرهُ الشيخُ من هذهِ الأمورِ الثلاثَةِ وغيرِها.

وكذلك إن كان اسم فاعلٍ بمعنى «الواد» وهو المُحبُّ: أثْمرَتْ لَهُ مُطالَعَةُ ذلِكَ حالاً تناسِبُه.

فإنه إذا شاهدَ بقلبه غنياً كريماً جواداً، عزيزاً قادراً، كُل أحدٍ محتاج إليهِ بالذات، وهو غنيٌّ بالذات عن كل ما سواه، وهو – مع ذلك – يَودُّ عبادَه ويحبهم، ويتوددُ إليهمِ بإحسانه إليهم، وتفضله عليهم، كان له من هذا الشُهودِ حالةٌ صافيةٌ خالصةٌ من الشوائِبِ.

وكذلك سائرُ الأسماءِ والصفات، فصفاءُ الحال بحسبِ صفاءِ المعرفةِ بها، وخلوصِها من دم التعطيلِ، وفَرْث التمثيل، فتخرجُ المعرفةُ من بينْ ذلِكَ فِطْرةً خالصةً سائغةً للعارفينَ، كما يخرجُ اللبنُ من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين». [مدارج السالكين:٣/ ١٦٥-١٦٦].

الاسم الحادي والعشرون والثاني والعشرون

القهار والقاهر

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى «القهار والقاهر» في أسماء الله تبارك وتعالى، فمن ذلك قوله: «الجبار اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار» [شفاء العليل: ١/ ٣٦٦]. وقوله: «ويقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله» [طريق الهجرتين:٨٨] وقال: «الله الخالق المصور القهار، فهذه أسماء دالة على معانٍ هي صفاته» [جلاء الأفهام].

وقال أيضاً: «لا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفء له، فإن لم يقهره لم يكن قاهراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤاً، وكان القهار واحداً». [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠١٨]. وقوله: «يمنع تسمية الإنسان بأسماء الرب تبارك وتعالى» وذكر من أسماء الرب التي يمنع من التسمية بها: الأحد، الصمد، القاهر، الظاهر. [تحفة المودود: ١١٧].

وقال في موضع آخر: «فيشهد العبد بقلبه ربّاً عظيماً قاهراً قادراً أكبر من كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله» [شفاء العليل:١/ ٣٣٠].

وقال: «الله قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه» [طريق الهجرتين:٤٨].

وقال: «الله المتصرف في الممالك كلّها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم» [طريق الهجرتين:٢٢٩].

وقرر ابن القيم أنه «لا يجوز تسمية الملوك بالقاهر والظاهر كما لا يجوز تسميتهم بالجبار والمتكبر». [تحفة المودود: ١٠٨].

الاسم الثالث والعشرون والرابع والعشرون

الوهاب الفتاح

ذكر ابن القيم هذين الاسمين من أسماء ربنا تبارك وتعالى، ولم أجده تناولهما بالشرح فيما اطلعت عليه، ومما ذكرهما فيه قوله في تعلق التوكل بأسماء الله الحسنى: «فإن للتوكل تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات، فله تعلق باسم «الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم»، وتعلق باسم: «الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي» ». [مدارج السالكين:٢/ ١٤١].

وذكر اسمه الوهاب بقوله: «الرب سبحانه كامل في أوصافه وأفعاله، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، فإنه منان وهاب، وقابض باسط» [شفاء العليل باختصار: ٢/ ٥٩٨].

الاسم الخامس والعشرون والسادس والعشرون

الرزاق والرازق

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في أسماء الله الحسنى الرزاق، فقال: «من أسمائه الرزاق المقتضي لوجود الرزق والمرزوق» [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٥٦٤].

وذكر رحمه الله تعالى في آثار أسماء الله الحسنى جملة من الأسماء، منها: «الرزاق والغفار» ثم قال: «تأمل من ظهور هذين الاسمين – اسم الرزاق واسم الغفار في الخليقة، ترى ما يعجب العقول، وتأمل آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليقة، وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته، ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلاً، فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة، فإمّا متصلاً بنشأته الثانية، وإما مختصاً بهذه النشأة» [مفتاح دار السعادة:٢/ ٢٦٢].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اسم الله الرزاق راجع إلى أفعاله [بدائع الفوائد:١/ ١٤٤، طبعة دار الخير].

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى اسم الله الرازق في أسمائه الحسنى، فقال: «أسماء الله كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، كالخالق والرازق والمحيي والمميت» [بدائع الفوائد: ١/ ١٤٨، طبعة دار الخير].

ولذا صرح بأنه لا يجوز التسمي بها، وقال في ذلك: «لا يجوز التسمية بالأحد الصمد، ولا بالخالق الرازق» [تحفة المودود:١١٧].

وبيّن أنه لا بدَّ من ظهور آثار أسمائه في العالم، ومن ذلك كونه رازقاً، فقال: «ورازق فلا بدَّ من وجود من يرزقه» [شفاء العليل: ٥٩٨].

الإسم السابع والعشرون والثامن والعشرون

العليم والعالِم

١- معنى اسمه تعالى «العليم والعالم»:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله هو «العالم بكل شيء؛ الذي لكمال علمه يعلمُ ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقطُ ورقةٌ إلاَّ بعلمه، ولا تتحرُّك ذرَّةٌ إلاَّ بإذنه، يعلمُ دبيبَ الخواطر في القلوب حيث لا يطَّلعُ عليها الملَك، ويعلمُ ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب» [طريق الهجرتين:٢٣٤].

٢- الله يعلم ما في الضمائر:

أورد ابن القيم الحديث الصحيح الذي فيه أن الرسول ﷺ سئل عما يكتمه الناس في ضمائرهم، هل يعلمه الله؟ فقال: «نعم» ذكره مسلم. [أعلام الموقعين:٦/ ٢١١].

٣- يريد الله من عباده أن يعلموا أنه أحاط بكل شيء علماً:

يقول ابن القيم رحمه الله: «أخبر الله سبحانه أنه خلق الخلق، ووضع بيته الحرام، والشهر الحرام، والهدي والقلائد، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢]. فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر» [مفتاح دار السعادة:١/ ٢٦].

٤- الله عليم يحب كل عليم:

قال ابن القيم في هذا: «الله – سبحانه – عليم، يحب كل عليم، وإنما يضع علمه عند من يحبه» [مفتاح دار السعادة:٤٣٥].

٥- علَّم الله الإنسان ما لم يعلم:

ذكر ابن القيم: «أن الله منَّ على الإنسان بتعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها – يعني سورة العلق – فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علّمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم، فقال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥] ثم قال: «والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأشرفها»». [مفتاح دار السعادة: ٢٤٢، ٢٤٣ باختصار].

الاسم التاسع والعشرون والثلاثون

السميع البصير

١- التعريف باسمي الله «السميع البصير»:

قال ابن القيم مثنياً على ربّه في فاتحة كتابه [إغاثة اللهفان: ١/ ٣]: «السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحّين في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء حيث كانت من سهله، أو جباله».

وقال في موضع آخر مثنياً على ربّه: «لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين على الدوام، يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة المدلهمة الشديدة الظلام». [شفاء العليل: ١/ ٤١].

وقال في موضع ثالث: «البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيلَ خَلْقِ الذَّرَّة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومُخّها وعُرُوقها، ويرى دبيبها على الصَّخرة الصَّماءِ في الليلة الظَّلماءِ، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السماوات السبع.

والسَّميعُ الذي قد استوى في سمعه سِرُّ القول وجهره، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه أصواتُ الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه كثرة السائلين.

قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءَت المجادلةُ تشكو إلى رسول الله ﷺ، وإني ليخفى عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]». [طريق الهجرتين: ٢٣٤].

٢- إثبات سمع الله بالنصوص القرآنية والحديثية:

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى النصوص المصرحة بإثبات السمع لله تبارك وتعالى، فقال: «قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وهذا أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفَةِ السَّمعِ: ذَكَرَ الماضيَ والمُضارعَ واسمَ الفاعل: ﴿سَمِعَ﴾ و﴿يَسْمَعُ﴾، وهو ﴿سَمِيعٌ﴾، وله السَّمعُ؛ كما قالت عائشَةُ رضي الله عنها: الحمدُ لله الذي وَسِعَ سَمعُهُ الأصواتَ، لَقَد جاءَت المجادِلَة تشكو إلى رَسول الله ﷺ وأنا في جانبِ البَيتِ، وإنَّهُ ليَخفى عليَّ بعضُ كلامِها، فأنزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]».

[عزاه محقق الكتاب إلى البخاري فقد رواه تعليقاً مجزوماً به وعزاه أيضاً إلى أحمد والنسائي وابن ماجه، وإسناده صحيح]، [مفتاح دار السعادة:٢٩٥].

٣- تقديم السمع على البصر:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «أما تقديم السمع على البصر، فهو متقدم عليه حيث وقع القرآن مصدراً أو فعلاً أو اسماً.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

والثاني: كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

والثالث: كقوله تعالى: ﴿ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر:٥٦]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤] فاحتجَّ بهذا من يقول: إن السمعَ أشرفُ من البصر، وهذا قول الأكثرين، وهو الذي ذكره أصحاب الشافعي، وحكوا هم وغيرهم عن أصحاب أبي حنيفة أنهم قالوا: البصر أفضل، ونصبوا معهم الخلافَ، وذكروا الحِجاج من الطرفين، ولا أدري ما يترتَّب على هذه المسألة من الأحكام حتى تُذكر في كتب الفقه!! وكذلك القولان للمتكلمين والمفسرين.

وحكى أبو المعالي عن ابن قتيبة تفضيل البصر، وردَّ عليه، واحتج مفضِّلو السمع بأن الله تعالى يقدِّمه في القرآن حيثُ وقع، وبأن بالسَّمع تُنال سعادة الدنيا والآخرة، فإن السعادة بأجمعها في طاعة الرسل والإيمان بما جاؤوا به، وهذا إنما يُدْرَك بالسمع، ولهذا في الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث الأسود بن سريع: «أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ يُدْلِي عَلَى الله بحُجَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فذكر منهم رجلاً أصم يقول: «يَا رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الإِسْلاَمُ وَأَنَا لاَ أَسْمَعُ شَيْئاً» [الحديث كما ذكر محقق الكتاب صححه ابن حبان والبيهقي والهيثمي والألباني في سلسلته الصحيحة] ». [بدائع الفوائد: ١/ ١٢٣، ١٢٤].

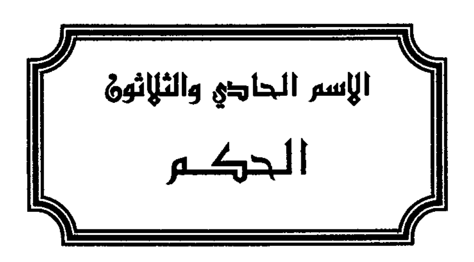
٤- تحديد معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما قول إبراهيم الخليل: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم:٣٩] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء، وإجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا، وأما قول زكريا: ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة.

والمعنى: إنك عودتني إجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنتَ إليَّ وقت كذا وكذا، فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، وقضى حاجته، وهذا ظاهر ههنا، ويدل عليه أنه قدّم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه إلى ما سأله» [بدائع الفوائد:٣/ ٥-٦، طبعة دار الخير].

٥- كيف يدل «السميع» على ذات الرب وسمعه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة – أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته، فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها. وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه. فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي» ». [مدارج السالكين: ١/ ٥٥].



الاسم الحادي والثلاثون

الحكم

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في أسماء الله الحسنى اسم الحكم، ومن ذلك قوله: «لله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار الحكم العدل» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

وقوله في أسمائه تبارك وتعالى: «وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل إلى سائر الأسماء» [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٥٦٤].

وقال: «من أسماء الله: الخافض الرافع، المعز المذل، الحكم العدل» [شفاء العليل: ٢/ ٦٥].

وأورد ابن القيم الحديث الذي فيه: «إنَّ الله هو الحكم، وإليه الحكم» [تحفة المودود:١١٧] [والحديث عزاه محقق التحفة إلى أبي داود والنسائي وإسناده حسن].

وأورد قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ ﴾ [الأنعام:١١٤] وعقب على ذلك قائلاً: وهذا يبين أن الحَكَم بين الناس هو الله عز وجل وحده، بما أنزله من الكتاب المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠]. وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ

بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ ﴾ [البقرة:٢١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:١٠٥]. وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]. فقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤] استفهام إنكار، يقول: كيف أطلب حكماً غير الله، وقد أنزل كتاباً مفصلاً، فإن قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ جملة في موضع الحال، وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل بَيِّنٌ، ضد ما يصفه به من يزعم أن عقول الرجال وآراءهم تعارض بعض نصوصه، وأن نصوصه خيلت وأفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، وأن لها معانٍ لا تُفهم ولا يُعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطنه خلاف ما دلت عليه ظواهرها فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلاً، بل مجمل ما دلّ، أو لا يعلم: المراد منه خلاف ظاهره، أو إفهام خلاف الحق. [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٤٢-١٠٤٤].

الاسم الثاني والثلاثون

العدل

١- معنى اسم الله العدل:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن «من أسمائه الحسنى العدل، الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكَّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله» [الفوائد:٣٣].

٢- العدل وضع الشيء موضعه:

قال ابن القيم في هذا: «العدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيله منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك، وأنه لا يستحق من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً». [بدائع التفسير:١/ ٤٦٢].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والعدل الذي هو اسمه وصفته لم تعرفه إلا الرسل وأتباعهم» [شفاء العليل: ١/ ٢٨١].

الاسم الثالث والثلاثون

اللطيف

أورد ابن القيم قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] ثم قال: «فأخبر أنه يلطف لما يريده، فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ [الكهف:١٩]». [شفاء العليل: ١/ ١٤٨].

وقال في موضع آخر: «اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق، حتى عجزت عنه الأفهام» [الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٩٢].

وقال ابن القيم في «نونيته» في اسم الله: «اللطيف»:

وهـو اللطيـف بعبـده ولعبـده	واللطـف في أوصـافه نوعـان
إدراك أسرار الأمـور بخـبرة	واللطـف عنـد مواقـع الإحسان
فيريـك عزتـه ويبـدي لطفـه	والعبـد في الغفـلات عـن ذا الشان

الاسم الرابع والثلاثون

الخبير

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في اسم الله «الخبير»: «الخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء، وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر، وتخفيه الصدور» [الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٩٢].

وأفاد ابن القيم رحمه الله تعالى أن: «الله له من صفات الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه». [بدائع الفوائد: ١/ ١٥٢].

وأورد ابن القيم النص القرآني المخبر بأن الله خبير، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١] ثم قال: «قيد – سبحانه – كونه خبيراً بهم ذلك اليوم – وهو خبير بهم في كل وقت – إيذاناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم، والمراد لازمه، والله سبحانه وتعالى أعلم». [التبيان في أقسام القرآن].

الاسم الخامس والثلاثون
الحليم

١- الحليم من أسماء الله الحسنى:

ذكر ابن القيم اسم الله «الحليم» في مواضع كثيرة من كتبه، فمن ذلك قوله: «أسماء الله الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم «السميع البصير» يقتضي مسموعاً ومبصراً، واسم «الرزاق» يقتضي مرزوقاً، واسم الرحيم يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماء: «الغفور والعفو والتواب والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم». [مدارج السالكين: ٢٣٩].

٢- مثال يظهر به معنى حلم الله تعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «شهود حلم الله – سبحانه وتعالى – في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحدث له معرفة باسمه: «الحليم» ومشاهدة صفة الحلم، والتعبد بها» [مدارج السالكين:٢٣٧].

٣- لولا حلم الله عز وجل لزالت السموات والأرض:

تحدث ابن القيم عن سعة حلم الله تعالى، فقال: «عرف الله سبحانه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه، وأنه لو شاء لعاجلَهُ على الذَّنْبِ وَلَهَتَكَهُ بينَ عبادِهِ، فلم يَطِبْ لهُ معهُم عَيشٌ أبداً، ولكنْ جَلَّلهُ بسترِهِ، وغشَّاهُ بحِلمهِ، وقيَّضَ لهُ من يحفظُهُ، وهو في حالتِهِ تلكَ، بل كانَ شاهداً وهو يُبارِزُهُ بالمعاصي والآثامِ، وهو مع ذلكَ يحرسهُ بعينِهِ الّتي لا تنامُ.

وقَد جاءَ في بَعضِ الآثارِ: «يقولُ اللهُ تعالى: أنا الجوادُ الكريمُ، مَن أعظَمُ منِّي جُوداً وكَرَماً، عبادي يُبارِزونَني بالعظائمِ وأنا أكلؤهُم في منازلهم»؛ فأيُّ حِلْمٍ أعظمُ من هذا الحلمِ؟! وأيُّ كَرَمٍ أوسعُ من هذا الكرمِ؟!.

فلولا حِلْمُهُ وكرمُهُ ومغفرتُهُ لَمَا استقرَّتِ السَّمواتُ والأرضُ في أماكنِها، وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١]، هذه الآيةُ تَقتَضي الحِلمَ والمغفرَةَ، فلولا حِلمُه ومغفرتُه لزالتا عن أماكنها، ومن هذا قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١]». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٧١].

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١]. ثم قال: «فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: «الحليم الغفور» وكيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة، ومغفرته للعصاة، لما استقرت السموات والأرض، وأخبر سبحانه عن كفر بعض عباده، أنه ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:٩٠]» [الجواب الكافي:١٦٥].

الاسم السادس والثلاثون

العظيم

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اسم الله العظيم وكذلك المجيد والصمد تدل على عدة صفات، وكل واحد من هذه الأسماء يتناول جميع تلك الصفات، وفي ذلك يقول: «من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كاسمه العظيم والمجيد والصمد» [بدائع الفوائد: ٢/ ١٥٢ طبعة دار الخير].

وذكر أن الملك له من الأسماء الحسنى: «العزيز الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

وقال أيضاً: «الجبار اسم من أسماء التعظيم، كالمتكبر والملك والعظيم والقهار» [شفاء العليل: ١/ ٣٦٦].

وذكر حال المصلي في ركوعه وتسبيحه باسمه العظيم فقال: «ثم يركع حانياً ظهره خضوعاً لعظمته، تذللاً لعزته، واستكانة لجبروته، مسبحاً له بذكر اسمه العظيم» [شفاء العليل: ٢/ ٦٣٠].

الاسم السابع والثلاثون والثامن والثلاثون

الشكور والشاكر

١- الشكور والشاكر من أسماء الله الحسنى:

«الله سبحانه شكور يحب الشاكرين» [عدة الصابرين:٥٦، وشفاء العليل: ٢/ ٧٢٠ وطريق الهجرتين: ٢٣٦] كما يقول ابن القيم، ونص على أن الشكور من أسمائه في قوله: «الرؤوف الغفور الشكور الصبور الودود» [بدائع الفوائد: ٣/ ١٨، طبعة دار الخير].

وقال أيضاً: «فأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكراً، قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧] وتسميته أيضاً شكوراً، قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان:٢٢] والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور» [عدة الصابرين:٣١٠].

٢- الله شكور يحب الشاكرين:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عَطَّلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور والظالم

والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستّار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، عفوٌّ يحبُّ العفوَ، وتر يحب الوتر، وكلُّ ما يحبُّه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادُّها وينافيها» [عدة الصابرين:٣١٢].

الاسم التاسع والثلاثون والأربعون

العلي الأعلى

١- معنى اسم الله: «العلي»:

تحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن اسم الله العلي، فقال: «اسمه «العلي» الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص، ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيء، بل يكون فوق كل شيء» [شفاء العليل: ٢/ ٥١٢].

وأورد اسم العلي في جملة صفاته في مواضع منها قوله: «ومن صفات الإحسان: البر الرحيم، والودود دون الرفيق والشفيق، وكذلك العلي العظيم» [بدائع الفوائد: ١/ ١٥٢. طبعة دار الخير].

٢- علو الله فوق خلقه:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة:٤٣] دل على: «علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلا إلى الأسفل، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم» [التبيان:١٤٤].

وقال: «من لوازم اسمه العلي: العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه، علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات، فقد جحد لوازم اسمه العلي» [مدارج السالكين:١/ ٥٥].

وتحدث ابن القيم عن تسبيح العبد حال سجوده باسم ربه الأعلى، فقال: «ثم أمر أن يسبح ربه العلى، فيذكر علوه – سبحانه – في حال سفوله هو، وينزهه عن مثل هذه الحال، وأن من هو فوق كل شيء، وعال على كل شيء، ينزه عن السفول بكل معنى، بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلو» [شفاء العليل: ٢/ ٦٣١].

الاسم الحادي والأربعون

الحفيظ

ذكر ابن القيم اسم الله الحفيظ في مواضع من مؤلفاته، فمن ذلك قوله: «المراقبة هي التعبد باسمه: الرقيب، الحفيظ، السميع، العليم، البصير» [مدارج السالكين: ٢/ ٧٤].

وقال مثنياً على ربه باسمه الحفيظ: «هو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأعظم رقيب، وأرأف رحيم» [شفاء العليل: ١/ ٤٢].

وقال ابن القيم في اسم الله: «الحفيظ» في نونيته:

وهــو الحفــيظ علــيهم وهــو الكفيــ ـــل بحفظهــم في كــل أمــر عــان

الاسم الثاني والأربعون

الحسيب

ذكر ابن القيم هذا الاسم في مواضع من مدوناته، منها قوله: «ولله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعزل المذل، العظيم الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي»

[بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، وراجع: ٣/ ١٨، طبعة دار الخير].

الاسم الثالث والأربعون والرابع والأربعون

الجليل ذو الجلال

ذكر ابن القيم اسم الله «الجليل» في مواضع من كتبه، قال ابن القيم في [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢]: «وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز والجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع، المعز المذل العظيم الجليل، الكبير الحسيب الوالي».

وأورد ابن القيم قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨] ثم قال: «وأصح القولين في ذلك: أن الجلال هو التعظيم، والإكرام هو الحب، وهو سِرُّ قول العبد: لا إله إلا الله، والله أكبر». [بدائع التفسير: ٤/ ٣٤٣].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى اسمه ذا الجلال والإكرام في قوله: «والمقصودُ أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوفٌ بكُلِّ صفة كمال، مُنزّه عن كُلِّ نقص، له كُلُّ ثناءٍ حسن، ولا يصدرُ عنه إلاّ كلّ فعلٍ جميل، ولا يُسمّى إلاّ بأحسن الأسماءِ، ولا يُثنى عليه إلا بأكمل الثناءِ، وهو المحمودُ المحبوبُ المعظّم، ذو الجلال والإكرام على كُلّ ما قدّره وخلقه، وعلى كُلِّ ما أمَرَ به وشَرَعَهُ» [طريق الهجرتين: ٢٣٨].

وأورد ابن القيم الحديث الذي رواه الترمذي الذي فيه التوسل ببعض أسمائه الحسنى، ومنها: «ذو الجلال والإكرام»، ونصه: «اللهم إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام».

الاسم الخامس والأربعون والسادس والأربعون

الكريم والأكرم

قال ابن القيم رحمه الله تعالى معرفاً اسمه الكريم: «الكريم: البهي، الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه» [التبيان:١٤٠].

وقد أورد ابن القيم اسم الله الكريم في مواضع من كتبه، كقوله: «وكيف يكون كريماً حليماً جواداً ماجداً، وخالقه ليس كذلك» [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠١٨].

وأورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:٣] ثم قال: «أعاد الله الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنَّه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه، والخير كله منه، والنعم كلها هو مولاها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقاً» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٤٢].

وقال أيضاً: «وذكر من صفاته هاهنا اسم «الأكرم» الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمال وصفاً، ومنه كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبرّه وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغني الحميد». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٤١].

الاسم السابع والأربعون

الرقيب

ذكر ابن القيم اسم الله الرقيب في ثنائه على ربّه بأسمائه، فقال: «الله أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأرأف رحيم» [شفاء العليل: ١/ ٤٢].

وأورد النصوص الدالة على أن الله عالِمٌ بالعباد، رقيب عليهم، فقال: «قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديثِ جبريلَ ؈ : أنه «سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عن الإحسانِ؟ فقال له: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ».

ثم قال: «المراقبةُ» دوامُ علمِ العبدِ، وتَيَقُّنِه باطِّلاعِ الحقِّ سبحانه وتعالى على ظاهِرِهِ وباطِنِه، فاستدامتُه لهذا العلمِ واليَقينِ: هي «المُراقبةُ» وهي ثمرةُ علمِهِ بأن الله سبحانَه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقولِهِ، وهو مطلعٌ على عمَلِه كلَّ وقتٍ وكلَّ لحظةٍ، وكلَّ نفس، وكل طرفة عين.

و«المراقبةُ» هيَ التَّعبُّدُ باسمِه «الرقيبِ، الحفيظِ، العليمِ، السميعِ، البصيرِ» فمن عَقَلَ هذه الأسماءَ، وتعبَّد بمقتضَاها: حصَلتْ له المراقبةُ. واللهُ أعلَمُ» [مدارج السالكين: ٢/ ٧٤].

الاسم الثامن والأربعون

الواسع

قال ابن القيم رحمه الله تعالى واصفاً ربّه تبارك وتعالى بأنه الواسع: «لعظمة الله وإحاطته بما سواه، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه واسع، فيرى ولكن لا يحاط به» [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٢٢].

وذكر ابن القيم – رحمه الله تعالى – أن الله ختم قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٦١] باسمين من أسمائه فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] وذكر «أن هذين الاسمين مطابقان لسياقهما، وهما الواسع العليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عطاؤه، فإن المضاعِفَ واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل». [بدائع التفسير: ١/ ٤١٨].

وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] «تأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين: واسع عليم، فإنه واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله». [بدائع التفسير: ١/ ٤٣١].

الاسم التاسع والأربعون

الحكيم

١- التعريف باسم الله «الحكيم»:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في تعريف اسمه الحكيم: «الحكيم» الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً، وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلا لله وحده» [بدائع التفسير: ١/ ٤٦٣].

وقال: «من أسمائه سبحانه العدل الحكيم الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله وهيأه له» [شفاء العليل: ٢/ ٥١٢].

وقال: «من أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته سبحانه، وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه، الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك، فوجود هذا النوع من تمام الحكمة، كما أنه من كمال القدرة». [شفاء العليل: ٢/ ٦٥٣].

وقال أيضاً: «الحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه، إذا كان طريقاً إلى ذلك المحبوب، ووجود

الملزوم بدون وجود لازمه محال، فإن يكن حصل بعدوّ الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة، هي أحب إلى الله وأرضى له من جهاد في سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له، وتحمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته» [شفاء العليل: ٢/ ٦٥٦].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر:١٢] ». [التفسير القيم: ص٢٩].

٢- وجه اقتران اسم الله الحكيم بالعليم أو العزيز:

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى وجه قرن الله سبحانه بين اسمه الحكيم واسمه العزيز أو العليم فقال: «يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبين اسمه العزيز تارة كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء:٢٦] ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٠]، وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:٤]، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل:٦]، فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعاً، يقال: عزّ يَعَزُّ – بفتح العين – إذا اشتدَّ وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعزّ يعِزُّ – بكسر العين – إذا امتنع ممن يرومه، وعز يعُزُّ – بضم العين – إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات – وهي الضمة – لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها – وهي الفتحة – لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلباً، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة – وهي الكسرة – للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهرَ غيره ويغلبه، فأعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله مريداً كان أقوى أنواع القهر، والعزُّ ضدّ الذل، والذّلُّ أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذماً له بخلاف الكبر.

قال رجلٌ للحسن البصري: إنك متكبر، فقال: لست متكبّراً، ولكني عزيز.

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨] وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري في صحيحه]. وقال النبي ﷺ : «اللهم أعزّ الإسلام بأحب هذيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عُمَرَ بْن الْخَطَّاب، أو أبي جَهْل بْن هِشَام» [عزاه محققه إلى الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح].

وفي بعض الآثار: إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عزّ وجلّ.

وفي الحديث: «اللّهُمَّ أَعِزَّنا بِطَاعَتِكَ وَلاَ تُذِلَّنَا بِمعْصِيتكَ» [قال محققه: ليس بحديث، ولكنه كلام بعض السلف].

وقال بعضهم: مَن أرادَ عزّاً بلا سلطان، وكثرةً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة.

فالعزَّةُ من جنس القدرة والقوة، وقد ثبت في الصحيح عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «المُؤْمِنُ الْقَويّ خَيْر وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضعيف، وفي كلٍّ خير».

فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادرُ يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله، كان فعله فساداً كصاحب شهوات الغيّ والظلم؛ الذي يذهب بقوته ما يريده من شهوات الغي في

بطنه وفرجه ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له قوة وعزة لكن لَّما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شرّه وفساده.

وكذلك العلم كماله أن تقترن به الحكمة، وإلاَّ فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه، بل يريد ما يهواه، سفيه غاوٍ، وعلمه عونٌ له على الشر والفساد، وهذا وإن كان عالِماً قادراً مريداً له إرادة من غير حكمة، وإن قدّر أنه لا إرادة له بحال، فهذا أوّلاً ممتنعٌ من الحي، فإن وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنع كوجود إرادة بدون الشعور.

وأما القدرة والقوة إذا قدّر وجودها بدون إرادة فهي كقوة الجماد، فإنَّ القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة لا إرادة لها، وقد قال بعضُ الناس: إنَّ للجماد شعوراً يليقُ به، واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤]، وبقوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف:٧٧]. وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلى كلامٍ يليقُ بهذا الموضع.

والمقصود أنَّ العلم والقدرة المجرّدين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معها، واسمه سبحانه «الحكيم» يتضمَّن حكمته في خلقه، وأمره في إرادته الدينية الكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به» [طريق الهجرتين:٢٠٣-٢٠٦].

٣- الحكمة والعلم مصدر الخلق والأمر:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «وقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات:٣٠] متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر

الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيّومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يسلتزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب.

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة: والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين: أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته». [بدائع التفسير: ٤/ ٢٤٤].

٤- حكم الله الديني وحكمه الكوني القدري:

قال ابن القيم مفرقاً بينهما: «حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي، وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه، ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه» [الفوائد:٣٢].

وقال أيضاً: «الحكم ما يحكم به – سبحانه – وقد يشاء تنفيذه،وقد لا ينفذه، فإن كان حكماً دينياً فهو ماض في العبد، وإن كان حكماً كونياً، فإن نفذه سبحانه مضى فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به» [الفوائد٣٢].

٥- حكم الله أحسن الأحكام:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «حكم الله أحسن الأحكام، وتقديره أحسن التقادير، ولولا مطابقته للحكمة والمصلحة المقصودة المرادة لما كان كذلك، إذ لو كان حسنه لكونه مقدوراً معلوماً كما يقوله النفاة، لكان هو وضده سواء، فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فكان كل معلوم مقدور أحسن الأحكام وأحسن التقادير، وهذا ممتنع، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥] فجعل هذا هو أحسن الأديان، ولهذا اختاره لنفسه وارتضاه لعباده، ويمتنع عليه أن يختار لهم ديناً سواه، أو يرتضي ديناً غيره، كما يمتنع عليه الحيف والظلم، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] وقال: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات:٢٣] وقال: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] فلا أحسن من تقديره وخلقه لوقوعه على الوجه الذي اقتضته حكمته ورحمته وعلمه.

وقال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك:٣] ولولا مجيئه على أكمل الوجوه وأحسنها، ومطابقته للغايات المحمودة، والحكم المطلوبة، لكان كله متفاوتاً أو كان عدم تفاوته أمراً اتفاقياً لا يحمد فاعله، لأنه لم يرده ولم يقصده، وإنما اتفق أن جاء كذلك». [شفاء العليل: ٢/ ٥٦٢-٥٦٣].

٦- الحكم العظيمة الباهرة المترتبة على ما خلقه الله وأوجده:

أكثر ابن القيم رحمه الله تعالى من ذكر حكم الله في مخلوقاته، وخاصة في كتابه مفتاح دار السعادة، وسأورد بعض ما أشار إليه من حكم.

أ- حكم الله في خلق من يشرك به ويعاديه: قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك به ويعاديه من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة ما لم يكن يحصل بدون ذلك؛ فلولا كفر قوم نوح، لما ظهرت آية الطوفان، وبقيت آية يتحدث بها الناس على مرِّ الزمان، ولولا كفر عاد لما ظهرت آية الريح العقيم، التي دمرت ما مَرَّت عليه، ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت آية إهلاكهم بالصيحة، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الآيات والعجائب التي تتحدث بها الأمم أمة بعد أمة، واهتدى بها من شاء الله، فهلك بها من هلك عن بينة، وحيّ بها من حَيّ عن بينة، وظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وآيات رسله وصدقهم.

فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها، والجواب عنها، وإهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه.

ولولا مجيء المشركين بالحد والحديد والعُدد والشوكة يوم بدر، لما حصلت تلك الآية العظيمة، التي ترتب عليها من الإيمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلاً مع عدمها، وقد بيّنا أن الموقوف على الشيء لا يوجد بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع». [شفاء العليل: ٢/ ٦١٧].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «ولولا معارضة السحرة لموسى بإلقاء العصي والحبال حتى أخذوا أعين الناس واسترهبوهم، لما ظهرت آية عصا موسى حتى ابتلعت عصيهم وحبالهم، ولهذا أمرهم موسى عليه السلام أن يلقوا أولاً، ثم يلقي هو بعدهم.

ومن تمام ظهور آيات الربّ تعالى وكمال اقتداره وحكمته، أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح، ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس، الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وشرها، وهو الداعي

إلى كل شر وأصله ومادته، وكذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام، والأرض والسماء، والجنة والنار، وسدرة المنتهى وشجرة الزقوم، وليلة القدر وليلة الوباء، والملائكة والشياطين، والمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والحر والبرد، والداء والدواء، والآلام واللذات، والأحزان والمسرات، واستخرج سبحانه من بين ذلك ما هو من أحب الأشياء إليه، من أنواع العبوديات، والتعرف إلى خلقه بأنواع الدلالات.

ولولا خلق الشياطين والهوى والنفس الأمارة، لما حصلت عبودية الصبر ومجاهدة النفس والشياطين ومخالفتها، وترك ما يهواه العبد ويحبه لله، فإن لهذه العبودية شأناً ليس لغيرها، ولولا وجود الكفار لما حصلت عبودية الجهاد، ولما نال أهله درجة الشهادة، ولما ظهر من يُقَدِّمُ محبة فاطره وخالقه على نفسه وأهله وولده، ومن يقدم أدنى حظ من الحظوظ عليه». [شفاء العليل: ٦٢١، ٦٢٢].

ب- **الحكمة من خلق الله إبليس والكفر والشرك**: قال ابن القيم في ذلك: «في خلق إبليس من الحكم والمصالح والخيرات التي ترتبت على وجوده ما لا يعلمه إلا الله، فالله سبحانه لم يخلقه عبثاً، ولا قصد بخلقه إضرار عباده وهلاكهم، فكم لله في خلقه من حكمة باهرة، وحجة قاهرة، وآية ظاهرة، ونعمة سابغة، وهو وإن كان للأديان والإيمان كالسموم للأبدان، ففي إيجاد السموم من المصالح والحكم ما هو خير من تفويتها» [شفاء العليل:٥٢٢].

ج- **الحكمة من إهباط آدم من الجنة**: وتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن الحكمة من إهباط آدم إلى الأرض، فقال: «أهبَطَ آدمَ أبا البَشرِ من الجنَّةِ، لِما له في ذلك مِن الحِكَمِ التي تَعجزُ العُقولُ عن مَعرِفَتِها، والألسُنُ عن صفَتِها، فكانَ إهباطُهُ منها عَينَ كمالِه، ليَعودَ إليه على أحسَنِ أحوالِهِ، فأرادَ سبحانَهُ أن يُذيقَهُ وَوَلَدَهُ مِن

نَصَبِ الدُّنيا، وغُمومِها وهمومِها وأوصابِها، ما يُعظِّمُ به عندَهُم مقدارَ دخولِهم إليها في الدَّارِ الآخِرَةِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضدُّ، ولو تَربُّوا في دارِ النَّعيم لم يَعرِفوا قَدْرَها.

وأرادَ سبحانه أمرَهُم، ونَهيَهُم، وابتلاءَهُم، واختبارَهُم، - وليسَت الجَنَّةُ دارَ تكليفٍ - فأهبَطَهُم إلى الأرضِ، وعَوَّضَهُم بذلك أفضَلَ الثَّوابِ الذي لم يَكُن لِيُنالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي.

أراد سبحانهُ أن يَتَّخِذَ منهم أنبياءَ، ورُسلاً، وأولياءَ، وشُهَداءَ، يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَهُ، فَخلَّى بينهُم وبينَ أعدائِهِ، وامتَحَنَهُم بهم، فلمّا آثَروه وبَذلوا نُفوسَهُم وأموالَهُم في مَرضاتِهِ ومحابِّه، نالوا مِن محَبَّته ورضوانِه والقُربِ منه ما لم يكن لِيُنالَ بدونِ ذلك أصلاً؛ فَدَرجةُ الرِّسالةِ والنبوَّةِ والشهادَةِ والحُبِّ فيه والبُغضِ فيه وَموالاةِ أوليائه ومُعاداةِ أعدائه عنده مِن أفضَلِ الدَّرَجات، ولم يَكُن يُنالُ هذا إلاّ على الوَجه الذي قَدّرَهُ وقضاه مِن إهباطِهِ إلى الأرضِ، وَجَعْلِ مَعيشتِه ومَعيشةِ أولادِهِ فيها.

والله سبحانَهُ له الأسماءُ الحُسنى؛ فَمِن أسمائِهِ: الغَفورُ، الرَّحيمُ، العَفُوُّ، الحَليمُ، الخافِضُ، الرَّافعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، المُحيي، المُميتُ، الوارِثُ، الصَّبورُ؛ ولا بُدَّ مِن ظهورِ آثارِ هذه الأسماءِ.. فاقتَضَت حكمَتُهُ سبحانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ داراً يُظهِرُ عليهم فيها أثَرَ أسمائِه الحُسنى، فَيَغفرُ فيها لِمَنْ يشاءُ، وَيَرحَمُ مَن يشاءُ، ويَخفِضُ مَن يشاءُ، ويَرفعُ مَن يشاءُ، ويُعِزُّ مَن يشاءُ، ويُذِلُّ مَن يشاءُ، ويَنتَقِم ممَّن يشاءُ.. ويُعطي وَيَمنَعُ، ويَقبِضُ وَيَبْسُطُ، إلى غَيرِ ذلكَ مِن ظهورِ أثَرِ أسمائه وصفاتِهِ.

والله سبحانَهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ، والمَلِكُ هو الذي يأمُرُ ويَنهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ، ويُهينُ ويُكرِمُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، فاقتَضى مُلكُهُ سبحانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ داراً تَجري عليهم فيها أحكامُ المَلِكِ، ثمَّ ينقُلُهُم إلى دارٍ يُتِمُّ عليهم فيها ذلك.

والله – سبحانَهُ – أنزَلَهُم إلى دارٍ يَكونُ إيمانُهُم فيها بالغَيبِ هو الإيمانَ النَّافِعَ، وأمَّا الإيمانُ بالشهادَةِ فكلُّ أحدٍ يؤمِنُ يومَ القيامَةِ، يومَ لا يَنفعُ نفساً إلاّ إيمانُها في الدُّنيا، فلو خُلقوا في دارِ النَّعيمِ لَمْ ينالوا درجةَ الإيمانِ بالغَيبِ، واللذَّةُ والكرامةُ الحاصلةُ بذلك لا تَحصُلُ بدونِه، بل كان الحاصِلُ لَهُم في دارِ النّعيم لذّةً وكرامةً غَيرَ هذه». [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٠٦، ١٠٧].

د- **الحكمة من إكثار الله سبحانه السمك ليكون أكثر الحيوان نسلاً:** قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «فتأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في كونِ السَّمَكِ أكثَرَ الحيوانِ نَسلاً، ولهذا تَرى في جوفِ السَّمكَةِ الواحدَةِ منَ البَيضِ ما لا يُحصى كثرَةً.

وحِكمَةُ ذلكَ أن يتَّسعَ لِمَا يَغتَذي به من أصنافِ الحيوانِ؛ فإنَّ أكثرَها يأكلُ السَّمَكَ حتى السِّباعَ، لأنَّها في حافّاتِ الآجامِ جاثمَةٌ تعكفُ على الماءِ الصَّافي، فإذا تَعذَّرَ عليها صَيدُ البَرِّ رَصَدَتِ السَّمكَ فاختَطفَتْهُ.

فلمَّا كانَت السِّباعُ تأكلُ السَّمَكَ، والطَّيرُ تأكلُهُ، والنَّاسُ تأكلهُ، والسَّمَكُ الكبارُ تأكلهُ، ودوابُّ البَرِّ تأكلهُ، وقَد جعلهُ اللهُ سبحانهُ غذاءً لهذه الأصنافِ اقتَضَت حكمتُهُ أن يكونَ بهذه الكثرَةِ.

ولو رأى العبدُ ما في البَحرِ من ضُروبِ الحيواناتِ والجواهرِ. والأصنافِ – التي لا يُحصيها إلاّ اللهُ، ولا يَعرفُ النَّاسُ منها إلاّ الشيءَ القليلَ الذي لا نِسْبَةَ لهُ أصلاً إلى ما غابَ عنهم – لرأى العَجَبَ، ولعَلِمَ سَعَةَ مُلْكِ الله وكثرَةَ جنودِهِ التي لا يعلمُها إلاّ هوَ». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٤].

هـ- **الحكمة من خلق الجراد على هذا النحو:** قال ابن القيم: «وهذا الجرادُ نَثرَةُ الحوتِ من حيتانِ البَحرِ ينثرهُ من مِنْخَرَيْه[1]، وهو جندٌ من جنودِ الله، ضَعيفُ

---

(١) ورد ذلك في حديث رواه الترمذي (١٨٢٣)، وابن ماجه (٣٢٢١)، ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١١)، ثم قال: «لا يصح، وموسى بن محمد متروك».

الخِلْقَةِ، عجيبُ التّركيب، فيهِ خَلقُ سبع حيواناتٍ؛ فإذا رأيتَ عساكرَهُ قد أقبلَت أبْصَرتَ جُنْداً لا مردَّ له ولا يُحصى منهُ عَددٌ، ولا عُدَّةٌ، فلو جَمَعَ المَلِكُ خَيلَهُ ورَجِلَهُ ودوابَّهُ وسلاحَهُ ليصدَّهُ عن بلدهِ لَمَا أمْكَنهُ ذلكَ، فانظُر كيف ينسابُ على الأرضِ كالسَّيلِ، فيَغشى السَّهلَ والجبَلَ والبَدْوَ والحضَرَ حتى يَستَرَ نورَ الشمسِ بكثرتهِ، ويَسُدَّ وجهَ السَّماءِ بأجنحتهِ، ويبلغَ منَ الجوِّ إلى حيثُ لا يبلغُ طائرٌ أكبرُ جناحين منه.

فَسَل المُعطِّلَ: مَن الّذي بَعَثَ هذا الجُندَ الضَّعيفَ الذي لا يَستطيعُ أن يَرُدَّ عن نفسهِ حيواناً رامَ أخْذَهُ؟ بَعَثَهُ على العسكرِ أهلِ القوَّةِ والكثرَةِ والعَدَدِ والحيلَةِ فلا يَقدرونَ بأجمعهم على دفعهِ، بل ينظرونَ إليهِ يستبدُّ بأقواتهم دونَهُم، ويُمزِّقها كلَّ مُمزَّقٍ، ويَذَرُ الأرضَ قَفراً منها، وهم لا يَستطيعونَ أن يَردُّوهُ، ولا يحولُوا بينهُ وبينها.

وهذا من حِكمتهِ سبحانهُ أن يُسلِّطَ الضَّعيفَ من خلقهِ الذي لا مُؤنَةَ لهُ على القويِّ فينتقمَ به منهُ، ويُنزلَ به ما كانَ يَحْذَرهُ منهُ حتى لا يَستطيعَ لذلكَ مَرَدّاً ولا صَرفاً، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥-٦].

فواحَسْرَتاهُ على استقامَةٍ معَ الله وإيثارٍ لمرضاتهِ في كلِّ حالٍ يُمَكِّنُ به الضَّعيفُ المُستَضعَفُ حتى يَرى مَن استَضعفهُ أنَّهُ أوْلى بالله ورسولهِ منهُ، ولكنِ اقتَضَتْ حِكمَةُ الله العَزيزِ الحكيمِ أن ياكُلَ الظَّالمُ الباغي ويتمتَّعَ في خَفارَةِ ذنوبِ المظلومِ المبغيِّ عليهِ، فذنوبُهُ من أعظَمِ أسبابِ الرَّحمَةِ في حقِّ ظالِه، كما أنَّ المسْؤولَ إذا ردَّ السَّائلَ فهو في خَفارَةِ كذبهِ، ولو صَدَقَ السَّائلُ لَمَا أفلَحَ مَنْ ردَّهُ، وكذلكَ السَّارقُ وقاطعُ الطَّريقِ في خَفارَةِ منعِ أصحابِ الأموالِ حُقوقَ الله فيها ولو أدَّوْا ما لله عليهم فيها لَحَفِظَها اللهُ عليهم». [مفتاح دار السعادة: ١٧٤-١٧٦].

و- الحكمة من حبس الغيث إذا منعوا الزكاة: وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وتأمَّل الحِكْمَةَ في حبسِ الله الغَيثَ عن عبادهِ وابتلائهم بالقَحطِ إذ منَعوا الزَّكاةَ، وحَرموا المساكينَ كيفَ جُوزوا على منعِ ما للمساكينِ قِبَلَهم من القوتِ بمنعِ الله مادَّةَ القوتِ والرِّزقِ وحَبْسِها عنهم، فقال له بلسانِ الحالِ: مَنَعْتُم الحقَّ فَمُنِعْتُم الغَيثَ، فهلاّ استزلتُموهُ ببَذْلِ ما لله قِبَلَكُم.

وتأمَّلْ حكمَةَ الله تعالى في صَرفِه الهُدى والإيمانَ عن قلوبِ الذينَ يَصرفونَ النَّاسَ عنهُ، فصدَّهُم عنهُ كما صَدُّوا عبادَهُ صداً بصدٍّ ومنعاً بمنعٍ.

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في مَحْقِ أموالِ المُرابينَ وتَسليطِ المُتْلِفاتِ عليهم، كما فعَلوا بأموالِ النَّاسِ ومَحَقُوها عليهم وأتلفوها عليهم بالرِّبا؛ جُوزوا إتْلافاً بإتْلافٍ، فقلَّ أنْ تَرى مُرابياً إلاّ وآخِرَتُهُ إلى مَحْقٍ وقِلَّةٍ وحاجَةٍ». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٧].

ز- الحكمة من تسليط العدو إذا جار قويُّهم على ضعيفهم: وتأمَّل حِكمتَهُ تعالى في تَسليطِ العدُوِّ على العبادِ إذا جارَ قويُّهُم على ضَعيفهم، ولم يُؤخَذ للمظلومِ حقُّهُ من ظالِمِه، كيفَ يُسلِّطُ عليهم مَن يفعلُ بهم كفعلهم برعاياهم وضُعفائهم سواءً، وهذه سنَّةُ الله تعالى منذ قامَت الدُّنيا إلى أن تُطوى الأرضُ ويُعيدها كما بدأها. [مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٧].

ح- الحكمة من جعل ملوك العباد من جنس أعمالهم: وتأمَّلْ حِكمَتَهُ تعالى في أنْ جَعَلَ مُلوكَ العبادِ وأُمراءَهُم وولاتَهُم من جنسِ أعمالهم، بل كأنَّ أعمالَهم ظَهَرَت في صورِ وُلاتِهم وملوكهم؛ فإنِ استقاموا استقامَت ملوكُهُم، وإنْ عَدَلوا عَدلتْ عليهم، وإنْ جاروا جارَت مُلوكُهُم وولاتُهم، وإنْ ظَهَرَ فيهم المكرُ والخديعَةُ فَوُلاتُهُم كذلكَ، وإنْ منَعوا حقوقَ الله لديهم وبَخِلوا بها منعَتْ ملوكُهُم وولاتُهم ما لهم عندَهم منَ الحقِّ وبَخِلوا بها عليهم، وإن أَخَذوا ممَّن يَستَضعفونهُ ما لا

يَستَحقُّونهُ في مُعاملتهم أخذَت منهم الملوكُ ما لا يَستحقُّونَهُ وضَربَت عليهم المُكوسَ والوظائفَ، وكُلُّ ما يَستخرجونهُ منَ الضَعيفِ يستخرجهُ الملوكُ منهم بالقوَّةِ، فعمّالُهم ظَهَرَتْ في صُوَرِ أعمالهم.

وليسَ في الحكمَةِ الإلهيَّةِ أن يُولَّى على الأشرارِ الفُجَّارِ إلاّ مَن يكونُ مِن جنسِهم.

ولَمَّا كانَ الصَّدرُ الأوَّلُ خيارَ القرونِ وأبرَّها كانَت ولاتُهم كذلكَ، فلمّا شابوا شِيبَتْ لهم الولاةُ، فحِكمَةُ الله تأبى أن يُوَلِّي علينا في مثلِ هذه الأزمانِ مثلَ مُعاوِيَةَ وعمرَ بن عبدالعَزيزِ، فَضلاً عن مثلِ أبي بكرٍ وعمرَ، بل وُلاتُنا على قَدْرِنا، وولاةُ مَن قبلنا على قَدْرِهم، وكلٌّ من الأمرين مُوجِبُ الحكمةِ ومُقتضاها.

ومَن له فِطنَةٌ إذا سافَرَ بفكرهِ في هذا البابِ رأى الحكمَةَ الإلهيَّةَ سائرَةً في القضاءِ والقَدرِ، ظاهرَةً وباطنَةً فيهِ كما في الخَلْقِ والأمرِ سواءً، فإيَّاكَ أنْ تَظنَّ بظنِّكَ الفاسدِ أنَّ شيئاً من أقضيتِهِ وأقدارهِ عارٍ عن الحكمَةِ البالغَةِ، بل جميعُ أقضيتِهِ تعالى وأقدارهِ واقعَةٌ على أتمِّ وجوهِ الحكمَةِ والصَّوابِ، ولكنَّ العُقولَ الضَّعيفَةَ محجوبةٌ بضَعفها عن إدْراكِها، كما أنَّ الأبصارَ الخُفَّاشيَّةَ محجوبةٌ بضعفها عن ضوءِ الشمسِ، وهذه العقولُ الصِّغارُ إذا صادَفها الباطلُ جالَت فيهِ وصالَت، ونَطَقَت وقالت، كما أنَّ الخُفَّاشَ إذا صادَفَهُ ظلامُ الليلِ طارَ وسارَ:

خفافيشُ أعْشاها النَّهارُ بضوئِه ... وَلازَمَها قِطْعٌ منَ الليلِ مُظلمُ

[مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٧٧-١٧٩].

ط- الحكمة في معاقبة الذين خلوا من قبل: قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «وتأمَّلْ حِكمتَهُ تبارَكَ وتعالى في عُقوباتِ الأمَمِ الخاليَةِ وتَنْويعِها عليهم بحسبِ تنوُّعِ جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٣٨-٤٠].

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في مَسْخِ مَن مَسَخَ منَ الأُمَمِ في صُوَرٍ مختلفَةٍ مناسبَةٍ لتلكَ الجرائمِ؛ فإنَّها لمّا مُسِخَت قلوبُهم، وصارَت على قلوبِ تلكَ الحيواناتِ وطِباعِها، اقتضَتِ الحكمَةُ البالغَةُ أنْ جُعِلَت صُورُهم على صُوَرِها لِتَتمَّ المُناسَبَةُ ويكمُلَ الشَّبَهُ، وهذا غايةُ الحكمَةِ.

واعْتَبِرْ هذا بمَن مُسِخوا قِرَدَةً وخنازيرَ، كيفَ غَلَبَت عليهم صفاتُ هذه الحيواناتِ وأخلاقُها وأعمالُها!.

ثمَّ إن كنتَ منَ المُتوسِّمينَ فاقرأْ هذه النُّسْخَةَ من وجوهِ أشباهِهم ونُظَرائهم، كيفَ تراها باديَةً عليها؟ وإنْ كانَت مَستورَةً بصورَةِ الإنسانيَّةِ فاقْرأْ نُسْخَةَ القِردَةِ من صُورِ أهلِ المَكرِ والخَديعَةِ والفِسْقِ الذينَ لا عُقولَ لهم، بل هم أخفُّ النَّاسِ عُقولاً وأعظمُهم مكراً وخداعاً وفسقاً!.

فإنْ لم تَقرأ نُسخَةَ القِرَدَةِ من وجوهِهِم فلَستَ من المُتوسِّمينَ، واقرأ نُسخَةَ الخنازيرِ من صوَرِ أشباههم وَلا سيَّما أعداءُ خيارِ خَلْقِ الله بعدَ الرُّسُلِ وهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّ هذه النُّسخَةَ ظاهرَةٌ على وجوهِ الرَّافضَةِ يقرأها كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ وغير كاتبٍ! وهي تظهرُ وتَخفى بحسبِ خِنزيريَّةِ القلبِ وخُبثِه؛ فإنَّ الخِنزيرَ أخبثُ الحيواناتِ وأردؤها طباعاً، ومِن خاصيَّتِهِ أنَّهُ يَدَعُ الطيِّباتِ فلا يأكلُها ويقومُ الإنسانُ عن رجيعِهِ فيُبادرُ إليهِ.

فتأمَّلْ مُطابَقَةَ هذا الوَصفِ لأعداءِ الصَّحابَةِ كيفَ تجدُهُ مُنطبقاً عليهم؟ فإنَّهُم عَمَدوا إلى أطيَبِ خَلقِ الله وأطهرهم فعادوهم وتبرَّؤوا منهم، ثمَّ والَوْا كُلَّ عدوٍّ لهم منَ النَّصارى واليَهودِ والمُشركينَ، فاستَعانوا في كلِّ زمانٍ على حَربِ المؤمنينَ المُوالينَ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ بالمُشركينَ والكفَّارِ وصرَّحوا بأنَّهُم خيرٌ منهم.

فأيُّ شبَهٍ ومُناسَبةٍ أوْلى بهذا الضَّرْبِ منَ الخنازيرِ؟! فإنْ لم تقرأ هذه النُّسخَةَ من وجوههم فلستَ من المُتوسِّمين!.

وأمَّا الأخبارُ التي تكادُ تبلغُ حدَّ التَّواترِ بمَسخِ مَن مُسخَ منهم عندَ الموتِ خِنزيراً فأكثرُ مِن أن تذكرَ هاهُنا، وقَد أفرَدَ لها الحافظُ محمّد بن عبدِالواحدِ المَقدسيّ كتاباً.

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في عذابِه الأُمَمَ السَّالفَةَ بعذابِ الاستئصالِ لمّا كانوا أطوَلَ أعماراً، وأعظَمَ قُوىً، وأعتى على الله وعلى رُسُلِه، فلمّا تَقاصَرَت الأعمارُ وضَعُفَت القُوى رَفَعَ عذابَ الاستئصالِ وَجَعَلَ عذابَهم بأيدي المُؤمنين، فكانَت الحكمَةُ في كلِّ واحدٍ من الأمرينِ ما اقتَضَتْهُ في وَقتِهِ». [مفتاح دار السعادة: ١٧٩-١٨٠].

ي- **الحكمة في كثرة بكاء الأطفال:** قال ابن القيم رحمه الله في هذا: «تأمَّلْ حِكمَةَ الله تعالى على كَثرَةِ بُكاءِ الأطفالِ وما لهُم فيهِ منَ المنفعَةِ؛ فإنَّ الأطبَّاءَ والطَّبائعيِّين شهدوا منفعَةَ ذلكَ وحِكمَته، وقالوا: في أدمغَةِ الأطفالِ رُطوبَةٌ لو بقيَت في أدمغتِهم لأحْدَثَت أحداثاً عظيمَةً، فالبُكاءُ يُسيلُ ذلكَ ويُحْدِرُهُ من أدمغتِهم فتَقوى أدمغتُهم وتصحُّ.

وأيضاً؛ فإنَّ البُكاءُ والعِياطَ يُوَسِّعُ عليهِ مجاريَ النَّفَس، ويفتحُ العُروقَ ويُصَلِّبُها، ويُقوِّي الأعصابَ.

وكم للطِّفلِ من منفعَةٍ ومصلحَةٍ فيما تَسمعهُ من بكائِه وصراخِه! فإذا كانَت هذه الحكمَةُ في البكاءِ الذي سببُهُ ورودُ الألمِ والمُؤْذي، وأنتَ لا تَعرفُها ولا تكادُ

تخطرُ ببالكَ، فهكذا إيلامُ الأطفالِ فيه وفي أسبابِهِ وعواقبِهِ الحميدَةِ منَ الحِكَمِ ما قَد خفيَ على أكثرِ النَّاسِ، واضطربَ عليهم الكلامُ في حكمَتِه اضطرابَ الأرْشِيَةِ».
[مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٢٨].

ك- الحكمة في الحفظ والنسيان لبني الإنسان: قال ابن القيم في ذلك: «تأمَّلْ حِكمَةَ الله عزَّ وجَلَّ في الحِفْظِ والنِّسيانِ الذي خَصَّ بِهِ نوعَ الإنسانِ وما لَهُ فيهما منَ الحِكَمِ، وما للعَبدِ فيهما منَ المصالحِ؛ فإنَّهُ لولا القوَّةُ الحافظَةُ التي خُصَّ بها لَدَخَلَ عليهِ الخَلَلُ في أُمورِهِ كلِّها ولم يَعرف ما لَهُ وما عليهِ، ولا ما أخذَ ولا ما أعطى، ولا ما سمعَ ورأى، ولا ما قالَ ولا ما قيلَ لهُ، ولا ذَكَرَ مَن أحسَنَ إليهِ ولا مَن أساءَ إليهِ، ولا مَن عامَلَهُ ولا مَن نَفَعهُ فيقرُبُ منهُ، ولا مَن ضرَّهُ فينأى عنهُ، ثمَّ كانَ لا يَهتَدي إلى الطَّريقِ الذي سَلَكَهُ أوَّلَ مرَّةٍ ولو سلكَهُ مراراً، ولا يَعرفُ علماً ولو دَرَسَهُ عُمُرَهُ، ولا ينتفعُ بتجربَةٍ، ولا يَستطيعُ أن يعتبرَ شيئاً على ما مَضى، بل كانَ خليقاً أنْ ينسلخ منَ الإنسانيَّةِ أصلاً.

فتأمَّلْ عظيمَ المنفعَةِ عليكَ في هذه الخِلالِ، وموقعَ الواحدَةِ منها فَضلاً عن جميعهنَّ.

ومِنْ أعجَبِ النِّعَمِ عليهِ نِعْمَةُ النِّسيانِ؛ فإنَّهُ لولا النِّسيانُ لَما سلا شيئاً، ولا انقَضَت لهُ حَسرَةٌ، ولا تعزَّى عن مُصيبَةٍ، ولا ماتَ لهُ حُزْنٌ، ولا بَطَلَ لهُ حقدٌ، ولا استمتَعَ بشيءٍ من متاعِ الدُّنيا مع تذكُّرِ الآفاتِ، ولا رجا غَفلَةً مِن عَدوٍّ ولا نِعْمَةً من حاسدٍ...

فتأمَّلْ نِعمَةَ الله في الحفظِ والنِّسيانِ مع اختلافهما وتضادِّهما، وجَعْلَهُ في كلِّ واحدٍ منهما ضَرباً منَ المصلَحَةِ». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٣٦].

الاسم المتمم للخمسين

الشهيد

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى النص الدال على هذا الاسم، وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] ثم قال: «من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطَّلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته». [مدارج السالكين: ٣/ ٥٠٦].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧] ونقل عن ابن عباس أنه قال: «يريد أن ربه على ذلك لشهيد». ثم قال: «ويؤيد قول ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتى بـ «على» فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات:٧] أي: مطلع عالم به، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٤٦] ». [بدائع التفسير:٥/ ٣٠٠].

وقال أيضاً: «ومن كماله المقدس اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يعزب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطناً وظاهراً». [مدارج السالكين: ٣/ ٥٠٧].

وقال: «فشهادة الرب تعالى تتضمن أن الذي شهد به قد بيّنه وأوضحه وأظهره، حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان» [مدارج السالكين: ٣/ ٥٠٣].

وقال أيضاً: «ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته باطناً وظاهراً، ومَنْ هذا شانه، كيف يليق بالعباد أن يشركوا به غيره، وأن يعبدوا معه غيره، ويجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك، ويؤيده ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر؟ وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر، ساعٍ في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس: يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به وجوَّزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة، وصفة المشيئة».

والقرآن مملوء من هذه الطريق، وهي طريق الخاصّة، بل خاصّة الخاصّة، هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله، وما لا يفعله». [بدائع التفسير ١/ ٤٧٠-٤٧١].

الاسم الحادي والخمسون

الحق

١- التعريف باسم الله «الحق»:

أورد ابن القيم رحمه الله الحديث الذي يدل على أنَّ الحق اسم من أسماء الله تعالى فقال: «ألا ترى إلى قوله ﷺ : «أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق» ثم قال: «ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق»».

وقد أورد ابن القيم الحديث مستشهداً به على أن: «الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالِماً، ليس كقولك: «جالس الفقيه أو العالِم»».

وقد قال بعد إيراده الحديث: «لم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه». [بدائع الفوائد: ٢/ ٤١١].

٢- التعريف بالحق الذي خلق السموات والأرض من أجله:

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلاً، بل خلقه خلقاً صادراً عن الحق، آيلاً إلى الحق، مشتملاً على الحق، فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقّاً».

[بدائع الفوائد: ٤/ ١٣٦ طبعة دار الخير].

٣- خلق الله عباده ليعرفوه ويعبدوه:

وقال ابن القيم بعد ذلك: «وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل وأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم، ومطاعهم ومحبوبهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢] فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده». [بدائع الفوائد: ٤/ ١٣٨، طبعة دار الخير].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده، وأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه:١٥]، وقال تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل:٣٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٣-٤].

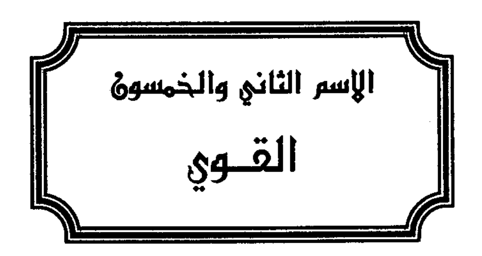
فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخراً ووسطاً، وأنها خلقت بالحق، وللحق، وشاهدة بالحق، وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥] ثم نزّه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٦].

وتأمّل ما في هذين الاسمين، وهما الملك الحق، من إبطال هذا الحسبان الذي ظهر أعداؤه، إذ هو منافٍ لكمال ملكه، ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في خلقه بقوله وأمره.

وهذا هو الفرق بين الملك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك، فهو المتصرف بفعله وأمره، فمن ظن أنه خلق خلقه عبثاً، لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٩١]، فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله ولم يقدِّره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته، وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثاً، وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦] قال الشافعي رحمه الله: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى». [بدائع الفوائد: ٤/١٣٨-١٣٩].

٤- أثر علم العبد أنه على الحق:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى مقرراً هذا المعنى: «والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليّه وناصره وسكونه إليه، فما له ألا يتوكّل على ربه؟ وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله حق، ليس في أفعاله شيءٌ باطل، بل أفعالُه سبحانه بريئة من الباطل كما أقواله، كذلك فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع ألبتة كان صاحبه كذلك، ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليّه ولا ناصره ولا وكيله». [طريق الهجرتين: ٤٦٤].



الإسم الثاني والخمسون

القــوي

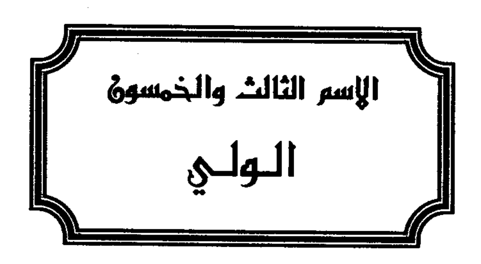
من أسماء الله الحسنى التي أوردها ابن القيم في مدوناته اسم «القوي» وفي ذلك يقول: «الله قوي، ويحب المؤمن القوي». [شفاء العليل: ١/ ٩٦]. وقال في موضع آخر: «الله قوي يحب أهل القوة من المؤمنين» [شفاء العليل: ١/ ٣٢٣].

وقال أيضاً: «الله قوي، وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته». [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٢٠].

وأورد ابن القيم قوله تعالى الدال على أن اسم القوي من أسمائه الحسنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] ثم قال: «فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسمَّ قوياً عزيزاً». [مدارج السالكين: ١/ ٥٢].

وقال في نونيته:

وهـــو القـــوي بقـــوة في وصـــفه   وعليـك يقـدر يـا أخـا الـسلطان



الاسم الثالث والخمسون

الـولـي

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٤] وفسر الولي بقوله: «يعني معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة». [بدائع التفسير: ٢/ ١٨٦].

وذكر ابن القيم أن «الولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب كما أن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده المؤمن بحسب محبته له، ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته تعالى.

وقد أنكر على من سوّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:٦٥] وأخبر عمن سوى بينه وبين الأنداد في المحبة أنهم يقولون في النار لمعبوديهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

وبهذا التوحيد في المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم،

ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنة لأهل هذا التوحيد والنار للمشركين به وفيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: «لا يؤمن عبد حتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟ .

وقال لعمر بن الخطاب ﷺ : «لا، حتى أكون أحب إليك من نفسك» أي: لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية». [الجواب الكافي:٣٣٢].

وقال ابن القيم في موضع آخر مبيناً معنى الولي: «اشتقاق وليِّ الله من المُوالاةِ؛ فإنَّها المحبَّةُ والقُرْبُ، فكما يقالُ: عبدُالله وحبيبُهُ، يُقال: وليُّهُ، واللهُ تعالى يُوالي عبدَهُ إحساناً إليهِ وجبراً له ورحمَةً، بخلافِ المخلوقِ فإنَّهُ يوالي المخلوقَ لتعزُّزِهِ به وتكثُّرِهِ بموالاتهِ؛ لِذُلِّ العَبدِ وحاجتهِ، وأمَّا العَزيزُ الغنيُّ – سبحانه – فلا يُوالي أحَداً من ذُلٍّ، ولا حاجَةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١] فلم يَنفِ الوليَّ نفياً عامّاً مُطْلَقاً، بل نَفى أن يكونَ لهُ وليٌّ من الذُّلِّ، وأثبَتَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ لهُ أولياءَ بقولِه: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢]، وقولِه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فهذه مُوالاةُ رحمَةٍ وإحسانٍ وجبرٍ، والموالاةُ المنفيَّةُ مُوالاةُ حاجَةٍ وذُلٍّ». [مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٩٤-٤٩٥].

الاسم الرابع والخمسون

الوالي

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى اسم الله الوالي في أسماء الله الحسنى، فقال: «له من معاني الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز والجبار، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل، الكبير الحسيب المجيد، الوالي المتعالي» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢].

الاسم الخامس والخمسون والسادس والخمسون

الحميد المجيد

١- التعريف باسم الله «الحميد»:

ذكر ابن القيم أن من أسماء الله الحسنى «الحميد، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده يوجب أن لا ينسب إليه شرٌّ ولا سوء ولا نقص، لا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في صفاته». [شفاء العليل: ٢/ ٥١١].

«والحميد: فعيل من الحمد، وهو بمعنى محمود، وأكثر ما يأتي فعيلاً في أسمائه بمعنى فاعل، كسميع وبصير وعليم، وقدير وعلي وحكيم، وحليم، وهو كثير، وكذلك فعول، كغفور، وشكور، وصبور.

ولم يأت حميد إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإنَّ فعيلاً إذا عدل به عن مفعول، دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية والغريرة والخلق اللازم.

إذا قلت: فلان ظريف وشريف وكريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فَعُلَ بوزن شَرُف، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة كَكَبُر، وصَغُر، وحَسُن ولَطُف، ونحو ذلك». [جلاء الأفهام: ١/ ٣١٥-٣١٦].

٢- «الحميد» هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقضي أن يكون محموداً:

قال ابن القيم: «الحميد هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين، وهكذا المجيدُ والممجَّد، والكبير والمكبَّر، والعظيم والمعظَّم.

والحمد والمجد إليهما يرجِعُ الكمالُ كله، فإن الحمد يستلزمُ الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تُثن عليه، لم تكن حامداً له، وكذا من أثنيتَ عليه لغرض ما، ولم تُحبه لم تكن حامداً له حتى تكون مثنياً عليه محباً له، وهذا الثناءُ والحب تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمودُ مِن صفات الكمال، ونعوتِ الجلال والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسبابُ المحبة، وكلما كانت هذه الصفاتُ أجمعَ وأكملَ، كان الحمدُ والحبُّ أتمَّ وأعظَم، والله سبحانه له الكمالُ المطلق الذي لا نقص فيه بوجهٍ ما، والإحسان كله له ومنه، فهو أحقُّ بكل حمد، وبكل حُبٍّ من كل جهة، فهو أهل أن يُحب لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه، ولكل ما صدر منه سبحانه وتعالى». [جلاء الأفهام: ٣١٦].

٣- الحمد أوسع الصفات وأعم المدائح:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «الحمد أوسعُ الصِّفات، وأعمّ المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيلُ إلى اعتباره في ذرّات العالم وجزئياته وتفاصيل الأمر والنهي واسعةٌ جداً، لأنَّ جميعَ أسمائه تبارك وتعالى حَمْدٌ، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكأن الغاية هي حمده، فحمده روح كلّ شيء، وقيام كلّ شيء بحمده، وسريانُ حمده في الموجودات، وظهور آثاره فيه أمرٌ مشهود بالأبصار والبصائر.

ومن الطرق الدّالّة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته، وإقرار العبد بأن للعالم إلهاً حياً جامعاً لكلّ صفة كمالٍ واسم حسن وثناءٍ جميل وفعل كريم، وأنّه سبحانه له القدرةُ التّامّة، والمشيئةُ النّافذة، والعلمُ المحيط، والسمعُ الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميعَ المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا يخرجُ عنه ذرّة من

الذّرّات، والغنى التّامّ المطلق من جميع الجهات، والحكمةُ البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزّة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات». [طريق الهجرتين: ٢٣١].

٤- التعريف باسم الله «المجيد»:

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن اسم الله المجيد «يدل على جملة من أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معانٍ، لا معنى مفرد، ومثله العظيم، الصمد».

وذكر أن اسم المجيد موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه: «رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعِظمه وشرفه» [بدائع الفوائد: ١/ ٢٨١ بشيء من التصرف والاختصار].

وقال في موضع آخر: «وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه، وأما من ليس له صفات كمال، ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال، تعالى الله عمّا يقول المعطلون علواً كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير» [التبيان:٦٠].

٥- المجد مستلزم العظمة والسعة والجلال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «وأما المجد، فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال، والحمدُ يدل على صفات الإكرام، والله سبحانه وتعالى ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قولِ العبد: «لا إلهَ إلاَّ الله والله أكبرُ» فـ «لا إله إلاَّ الله» دال على ألوهيته وتفرده فيها، فألوهيته تستلزم محبته التامة، و«الله أكبرُ» دال على مجده وعظمته، وذلك يستلزم تعظيمه وتمجيده وتكبيره، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين

النوعين في القرآن كثيراً، كقوله: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١] فأمر بحمده وتكبيره، وقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧].

وفي «المسند» و «صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلِظُّوا بيَاذَا الجَلاَلِ والإِكْرَامِ» [عزاه محقق الكتاب إلى الترمذي، وأحمد في المسند والحاكم وصححه ووافقه الذهبي] يعني الزموها وتعلّقوا بها، فالجلال والإكرام: هو الحمد والمجد». [جلاء الأفهام:٣١٧].

٦- وجه اقتران اسم المجيد بالحميد:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن أحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لأهل بيت الخليل ؑ : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣] وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد». فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال، والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ذو الإجلال والإكرام». [التبيان:٦٠].

٧- وجه ذكر اسمي الحميد والمجيد في آخر التشهد:

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى وجه «ذكر هذين الاسمين «الحميد والمجيد» عقيب الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله مطابق لقوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣].

ولما كانت الصلاة على النبي ﷺ وهي ثناء الله تعالى عليه وتكريمه، والتنويه به، ورفع ذكره، وزيادة حبه، وتقريبه، كانت مشتملة على الحمد والمجد، فكأن المصلي طلب من الله تعالى أن يزيد في حمده ومجده، فإن الصلاة عليه هي نوع من حمد له وتمجيد، هذه حقيقتها، فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له، وهما أسماء الحميد والمجيد، وهذا يدل على أن الداعي يشرع له أن يختم دعاءَه باسم من الأسماء الحسنى مناسب لمطلوبه، أن يفتتح دعاءَه به». [جلاء الأفهام:٣١٨].

وقال بعد ذلك: «لما كان المطلوب للرسول ﷺ حمداً ومجداً بصلاة الله عليه، ختم هذا باسمي: «الحميد والمجيد».

وأيضاً فإنه لما كان المطلوب للرسول ﷺ حمداً ومجداً، وكان ذلك حاصلاً له، ختم ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للرب بطريق الأولى، إذ كل كمال في العبد غير مستلزم للنقص فإنه أولى به.

وأيضاً فإنه لما طلب للرسول ﷺ حمداً ومجداً بالصلاة عليه، وذلك يستلزم الثناء عليه، ختم هذا المطلوب بالثناء على مرسله بالحمد والمجد، فيكون هذا الدعاء متضمناً لطلب الحمد والمجد للرسول ﷺ والإخبار عن ثبوته للرب سبحانه وتعالى». [جلاء الأفهام:٣٢٠].

الاسم السابع والخمسون والثامن والخمسون

الحي القيوم

١- معنى اسمي الرب «الحي القيوم»:

قال ابن القيم في هذين الاسمين العظيمين: «إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضياً لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وإرادته ورحمته، وفعله ما يشاء.

واسمه القيوم مقتض لتدبير العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنَّه الحي القيوم». [التبيان:١٠٢].

٢- دعاء الله باسميه الحي القيوم:

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى قول الرسول ﷺ في دعائه: «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث» [عزاه محقق كتاب بدائع الفوائد: ٢/ ٦٧٨ إلى الترمذي والحاكم، وقال الترمذي فيه: «هذا حديث غريب» وصححه الحاكم].

وذكر ابن القيم أن هذا الحديث من أدعية الكرب لما تضمنه من التوحيد والاستغاثة برحمة أرحم الراحمين، متوسلاً باسمين من أسمائه الحسنى.

٣- مدار أسماء الله الحسنى على الحي القيوم:

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن مدار أسماء الله الحسنى على هذين الاسمين: «الحي القيوم» وإليهما مرجع معانيها جميعاً.

وبيّن رحمه الله تعالى «أن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم

إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلِّمو أهل الإثبات له تعالى صفةَ السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما القيوم؛ فهو متضمن كمالَ غِناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يُقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته، فانتظمَ هذان الاسمان صفاتِ الكمال والغنى التام والقدرة التامة. فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن تكون في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

والمقصود: أن الرحمةَ المستغاث بها هي صفة الرَّب تعالى لا شيء من مخلوقاته، كما أن المستعيذ بعزته في قوله: «أَعُوذُ بِعِزَّتك» مستعيذٌ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يُعِز بها عبادَه المؤمنين». [بدائع الفوائد: ٢/ ٦٧٩].

٤- القيوم هو القائم بنفسه والقيام بالنفس صفة كمال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «القيام بالنفس صفة كمال، فالقائم بنفسه أكمل ممن لا يقوم بنفسه، ومن كان غناه من لوازم ذاته، فقيامه بنفسه من لوازم ذاته، وهذه حقيقة قيوميته سبحانه، وهو الحي القيوم، فالقيوم: القائم بنفسه المقيم لغيره، فمن أنكر قيامه بنفسه بالمعنى المعقول، فقد أنكر قيوميته». [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٣٢٨-١٣٢٩].

٥- لكمال حياة الله وقيوميته لا تأخذه سِنَة ولا نوم:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «الله الحيُّ القيوم الذي لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، مالك السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه». [طريق الهجرتين: ٢٣٤].

٦- عجيبة تحصل لمن تفقه قلبه بمعاني القرآن:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهاهنا عجيبة: يحصل لمن تفقه قلبه في معاني القرآن عجائب الأسماء والصفات، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، يرى لكل اسم وصفة موضعاً من صلاته، ومحلاً منها، فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الرب تبارك وتعالى، شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: الله أكبر، شاهد كبرياءَه» [الصلاة:١٧١].

٧- اسما الحي القيوم متضمنان الاسم الأعظم:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اسم الله الأعظم في آية الكرسي وفاتحة آل عمران، لاشتمالها على صفة الحياة، المصححة لجميع الصفات، وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال؛ ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن [صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري]؛ لأنها أخلصت للخبر عن الرب تعالى، وصفاته دون خلقه، وأحكامه، وثوابه، وعقابه.

وسمع النبي ﷺ رجلاً يدعو: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت المنّان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم» [عزاه محقق الكتاب إلى الترمذي وأبي داود والنسائي، وصححه الحاكم]، وسمع آخر يدعو: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال لأحدهما: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»، وقال للآخر: «سل تعطه» [عزاه محقق الكتاب إلى الترمذي وقال فيه: حسن غريب، وأبي داود]، وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وأحب ما دعاه الداعي به أسماؤه وصفاته.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك،

عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً»، قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله، قال: «بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» .

الاسم التاسع والخمسون

الواجد

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن من أسماء الله «الواجد» فقال: «دخل في أسمائه سبحانه «الواجد» دون «الموجد»، فإن «الموجد» صفة فعل، وهو معطي الوجود، كالمحيي معطي الحياة، وهذا الفعل لم يجئ إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنّة، فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا، وإنما الذي جاء «خلقه وبَرأَه، وصَوَّره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك، فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجئ اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنى، فإن الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد، وشاء، وأحدث، ولم يسم «بالمريد» و«الشائي» و«المحدث»، كما لم يسم نفسه بـ «الصانع» و «الفاعل» و «المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

وقد أخطأ – أقبح خطأ – من اشتق له من كل فعل اسماً وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء، وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمى بذلك.

فأما «الواجد» فلم تجئ تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنى. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ، ومعناه صحيح. فإنه ذو الوُجد والغنى، فهو أولى بأن يسمى به من «الموجود» ومن «الموجد» أما «الموجود» فإنه منقسم إلى

كامل وناقص، وخير وشر، وما كان مسماه منقسماً لم يدخل اسمه في الأسماء الحسنى، كالشيء والمعلوم، ولذلك لم يسم بالمريد، ولا بالمتكلم. وإن كان له الإرادة والكلام، لانقسام مسمى «المريد» و «المتكلم»؛ وأما «الموجد» فقد سمى نفسه بأكمل أنواعه. وهو «الخالق، البارئ، المصور» فالموجد كالمحدث والفاعل والصانع.

وهذا من دقيق فقه الأسماء الحسنى، فتأمله، وبالله التوفيق». [مدارج السالكين: ٣/ ٤٥٢].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن لفظ الموجد لم يقع في أسمائه سبحانه، وإن كان هو الموجد على الحقيقة، ووقع في أسمائه الواجد، وهو بمعنى الغني الذي له الوجد» [شفاء العليل: ١/ ٣٩٣].

الإسم المتمم للستين والحادي والستين

الجواد الماجد

١- تعريف اسمي الله: الجواد الماجد:

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى حديث أبي ذر وفيه: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته» وفي آخره: «ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، فإذا أردت شيئاً، فإنما أقول له: كن، فيكون» [شفاء العليل: ١/ ١٨١].

وقال أيضاً: «الله الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٧٥].

وقال أيضاً: «الله أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمتُه غضبَه، وحلمُه عقوبتَه، وعفوه مؤاخذتَه، وأنه قد أفاضَ على خلقه النعمة، وكتبَ على نفسه الرحمةَ، وأنه يحبُّ الإحسانَ والجود والعطاءَ والبرَّ، وأنَّ الفضلَ كلَّه بيده، والخيرَ كلَّه منه، والجودَ كلَّه له، وأحبُّ ما إليه: أن يجودَ على عباده ويُوسِعَهم فَضْلاً، ويغمرَهم إحساناً وجوداً، ويتمَّ عليهم نعمتَه، ويضاعفَ لديهم منتَه، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحببَ إليهم بنعمه وآلائه». [مدارج السالكين: ٢٤٢-٢٤٣].

٢- عظم جود الله وفرح الله بجوده:

«وَجُودُ كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقلُّ مِن ذرةٍ بالقياس إلى جوده، فليس الجوادُ على الإطلاق إلاّ هو، وجودُ كل جواد فمن جوده، ومحبته للجود

والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوقَ ما يخطرُ ببال الخلق، أو يدورُ في أوهامهم، وفرحُه بعطائه وجوده وإفضاله أشدُّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمعَ شدةُ الحاجة وعظمُ قدر العطية والنفع بها، فما الظنُّ بفرح المُعطَى؟ ففرحُ المعطي سبحانه بعطائه أشدُّ وأعظمُ من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثلُ الأعلى.

إذْ هذا شأنُ الجواد من الخلق، فإنه يحصُلُ له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصلُ لمن يعطيه، ولكنَّ الآخذَ غائبٌ بلذة أخذه، عن لذة المعطي، وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يُعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونَه. ونفسُه قد طُبِعت على الحرص والشُّح.

فما الظنُّ بمن تقدَّسَ وتنزَّهَ عن ذلك كله؟ ولو أنَّ أهلَ سماواته وأرضه، وأولَ خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورَطْبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلَّ واحد ما سأله، ما نقصَ ذلك مما عنده مثقالَ ذرة». [مدارج السالكين: ١/ ٣٤٣-٣٤٤].

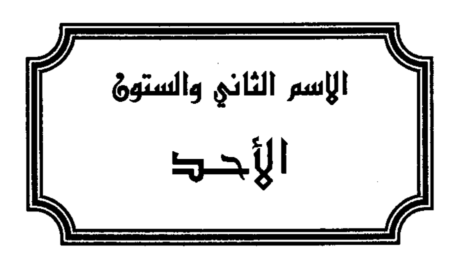
٣- الله جواد لذاته:

«وهو الجوادُ لذاته، كما أنه الحيُّ لذاته، العليمُ لذاته، السميعُ البصير لذاته، فجودُه العالي من لوازم ذاته، والعفوُ أحبُّ إليه من الانتقام، والرحمةُ أحبُّ إليه من العقوبة، والفضلُ أحسَنُ إليه من العدل، والعطاءُ أحبُّ إليه من المنع». [مدارج السالكين: ١/ ٢٤٤].

كيف يستدعي العبد من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به:

«فإذا تعرَّضَ عبده ومحبوبُه الذي خلقه لنفسه، وأعدَّ له أنواعَ كرامته، وفضَّلَه على غيره، وجعلهُ محلَّ معرفته، وأنزلَ إليه كتابَه، وأرسلَ إليه رسولَه، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سُدىً فتعرض لغضبه، وارتكبَ مساخِطَه وما يكرهه وأَبَقَ منه،

ووالى عدوَّه وظاهرَه عليه، وتحيَّزَ إليه، وقطعَ طريقَ نِعَمِه وإحسانه إليه التي هي أحبُّ شيء إليه، وفتحَ طريقَ العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلافَ ما هو موصوفٌ به من الجودِ والإحسان والبر، وتعرضَ لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصيرَ غضبُه وسخطُه في موضع رضاه. وانتقامُه وعقوبتُه في موضع كرمه وبره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجودِ والإحسان». [مدارج السالكين: ١/ ٢٤٤].



الاسم الثاني والستون

الأحد

قال ابن القيم مثنياً على ربه تبارك وتعالى: «هو الأحد الصمد، الذي تفرد بإلاهيته، وتوحَّد بربوبيته، وتعالى عن مشابهة خليقته، وأنى يشبه العبد المخلوق الملك القدوس السلام». [شفاء العليل: ١/ ٤٢].

وذكر في [بدائع الفوائد: ٢/ ١٤٦] أن قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] «متضمن لتفرُّده بكماله، وأنه لا نظير له».

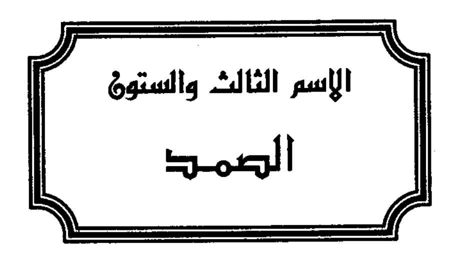
وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص] «هو توحيد من الله لنفسه، وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ كان قد وحّد الله بما وحّد به نفسه، وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله».

وقال: «قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد». [بدائع التفسير: ٥/ ٣٦٧].

وقال أيضاً: «سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب للربّ تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه». [بدائع التفسير: ٥/ ٣٦٨].

وذكر في [تحفة المودود: ١١٧] أنه لا يجوز التسمية بالأحد والصمد، ولا بالخالق ولا الرازق.

وأورد ابن القيم حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه، قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». فقال : «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح. [مدارج السالكين: ١/ ٤٦].



تعريف اسم الله الصمد تبارك وتعالى:

قال ابن القيم في تعريف اسم الصمد: «الصمد السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، ولهذا كانت العرب تسمي أشرافها بهذا الاسم، لكثرة الصفات المحمودة في المسمى به، قال شاعرهم:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف منهم عبدالله بن عباس: «الصمد السيد الذي كَمُل سؤدده، فهو العالِم الذي كَمُلَ علمه، القادر الذي كَمُلت قدرته، الحكيم الذي كَمُلَ حكمه، الرحيم الذي كَمُلت رحمته، الجواد الذي كَمُلَ جوده »، ومن قال: «إنه الذي لا جوف له» فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإنَّ اللفظ من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ولا جوف له، فإنما لم يكن أحد كفواً له لما كان صمداً كاملاً في صمديته، فلو لم تكن صفات كمال، ونعوت جلال، ولم يكن له علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة، ولا كلام، ولا وجه، ولا يد، ولا سمع، ولا بصر، ولا فعل يقوم به، ولا يفعل شيئاً ألبتة، ولا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق عرشه، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا

يبغض، ولا هو فعال لما يريد، ولا يرى، ولا يمكن أن يرى، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه، لكان العدم المحض كفواً فإن هذه الصفات منطبقة على المعدوم، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمداً، وكان العدم كفواً له» [الصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٢٤-١٠٢٧].

وقال ابن القيم رحمه الله معرفاً باسم الله الصمد، ناقلاً: «عن ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كَمُل في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُل في عظمته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والعليم الذي قد كَمُلَ في علمه، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حكمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه.

هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفواً أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار هذا لفظه». [بدائع الفوائد: ١/ ١٥٢ طبعة دار الخير].

وإذا أمعنت النظر في هذا التعريف وجدت هذا الاسم – كما يقول ابن القيم – دالاً على عدة صفات، وهو متناول لجميعها تناول الاسم الدال على صفة واحدة، وهذا موجود في اسمه الصمد والعظيم والمجيد، وقال ابن القيم في تعريف الصمد أيضاً: «قال ابن عباس: هو السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده.

وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء، وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

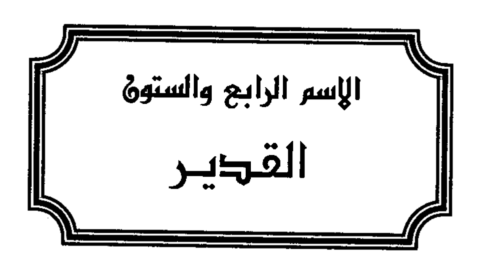
واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد ، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكّـر النـاعي بخـير بنـي أسـد بعمـرو بـن يربـوع وبالـسيد الـصمد

والعرب تسمي أشرافها بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه. [بدائع الفوائد ١/ ١٤٥ طبعة دار الخير].

وأورد ابن القيم حديث عبدالله بن بُريدة عن أبيه، قال: سمعَ النبيُّ ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللَّهُمَّ أسْأَلُكَ بِأَنِّي أشْهَدُ أنَّكَ الله الَّذي لا إلهَ إلاّ أنْتَ، الأحدُ الصَّمَدُ، الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفواً أحد، فقال: «والَّذي نَفْسي بيَدِهِ، لَقَدْ سألَ اللهَ باسمِهِ الأعْظَم، الَّذي إذا دُعِيَ بهِ أَجَابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطى». قال الترمذي: حديث صحيح.

ثم قال: «فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابنُ عباس: «العالِمُ الذي كَمُلَ علمهُ، القادر الذي كَمُلت قدرته»، وفي رواية عنه: «هو السيدُ الذي قد كَمُلَ فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده»، وقال سعيد ابن جبير: «هو الكاملُ في جميع صِفاته وأفعاله وأقواله»، وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنّة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم». [مدارج السالكين: ١/ ٤٦].



١- المعنى المراد من اسم الله القدير:

أورد ابن القيم اسم الله القدير في ثنائه على ربّه وتمجيده له بقوله: «القدير الذي ليس كمثله شيء في قدرته، الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء في حياته وقيوميته» [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٣٣٨].

٢- آثار كمال قدرة الله تبارك وتعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «القدير الذي لكمال قدرته يهدي مَن يشاءُ ويُضِلُّ مَن يشاءُ، ويجعلُ المؤمنَ مؤمناً، والكافر كافراً، والبرَّ بِراً، والفاجرَ فاجراً، وهو الذي جعلَ إبراهيمَ وآله أئمة يدعُون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعونَ وقومَه أئمةً يدعون إلى النار. ولكمال قدرته لا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِن علمه إلاَّ بما شاءَ سبحانه أن يعلمه إياه، ولكمال قدرته خَلَقَ السماوات والأرض وما بينهما في سِتَّة أيام وما مَسَّه من لُغُوب، ولا يعجزه أَحَدٌ مِن خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، فإن فرَّ منه فإنما يطوي المراحلَ في يديه، كما قيل:

وَكَيْفَ يفرُّ المرءُ عَنْكَ بِذَنبه ... إذَا كانَ يَطْوي في يَدَيكَ المراحِلا»

[طريق الهجرتين: ٢٣٥].

الاسم الخامس والستون إلى الثامن والستون

الأول والآخر والظاهر والباطن

١- معاني أسماء الله الأول والآخر والظاهر والباطن:

قال ابن القيم مثنياً على ربه تبارك وتعالى: «هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء». [شفاء العليل: ١/ ٤٢].

ونقل ابن القيم عن البيهقي في «الأسماء والصفات» عن بكير بن معروف عن مقاتل: أنه بلغه في قوله عزَّ وجل: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣] «الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر فوق كل شيء، والباطن أقرب من كل شيء.وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته، وهو فوق عرشه، وهو بكل شيء عليم، وبهذا الإسناد عنه في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] يقول بعمله وذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧] فيعلم نجواهم، ويسمع كلامهم ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء وهو فوق عرشه وعلمه معهم». [اجتماع الجيوش الإسلامية: ١/ ١٣٠].

٢- مقتضى عبادة الله بأسمائه: الأول والآخر والظاهر والباطن:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «وكان سبحانه هو الأول في ذلك كلّه، كما أنه الأول في كلّ شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كلّ شيء، فمن

عبده باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديّتُه باسمه الظاهر والباطن، فهذا هو العارفُ الجامعُ لمتفرّقات التَعبُّد ظاهراً وباطناً.

فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرُّد من مطالعة الأسباب، والوقوف عنها أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلةٍ من العبد، إذ لا وسيلةَ له في العدم قبل وجوده، وأيَّ وسيلة كانت، وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حِينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فمنه سبحانه الإعدادُ، ومنه الإمدادُ، وفضلُه سابقٌ على الوسائل، والوسائلُ من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزَّل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصّاً وعبودية خاصّة.

وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلّقُ بها تعلّقٌ بعدم وينقضي، والتعلق بالآخر عزّ وجلّ تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلّق به حقيق ألا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلّق بغيره مما له آخر يفنى به، فكذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلّها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحّة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر دون كل شيءٍ سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه ينتهي الأمرُ بسبب غير الأسباب والسوائل، فهو أوّلُ كُلّ شيء وآخره، وكما أنه ربّ كلّ شيءٍ وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاحَ له ولا فلاح ولا كمال إلاّ بأن يكونَ وحده، هو غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأوّل الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبّتها، فليس وراءَ الله شيءٌ يُقصدُ ويُعبد ويتألّه، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، كما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تألّهك له لتصحّ عبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حُبِّك وإرادتك وتألهك إليه لتصحّ لك عبوديته باسمه الأول والآخر، وأكثر الخلق تعبّدوا له باسمه الأول، وإنما الشأْنُ في التعبُّد له باسمه الآخر، فهذه عبوديةُ الرسل وأتباعهم، فهو ربُّ العالمين وإلهُ المرسلين سبحانه وبحمده.

وأمّا عبوديَّتهُ باسمه الظاهر فكما فسَّره النبيُّ ﷺ بقوله: «وأنتَ الظَّاهرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الْباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْء» [رواه مسلم والترمذي].

فإذا تحقق للعبد علوّه المطلَق على كُلّ شيء بذاته، وأنه ليس شيء فوقه ألبتة، وأنه قاهر فوق عباده ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة:٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] صار لقلبه إماماً يقصده، وربّاً يعبده، وإلهاً يتوجّه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربّه، فإنه ضائع مُشتّت القلب، ليس لقلبه قبلةٌ يتوجّه نحوها، ولا معبودٌ يتوجّه إليه قصده.

وصاحبُ هذه الحال إذا سلك وتألّه وتعبّد طلب قلبه إلهاً يسكن إليه ويتوجّه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويُصلى له ويسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح، جال قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولا بُدَّ، وتعلّق قلبُه بالوجود المطلق الساري في المعينات، فاتَّخذ إلهه من دون الإله الحق، وظنَّ أنه قد وصل إلى عين الحقيقة! .

وإنما تَألَّه وتعبّد لمخلوقٍ مثله، لخيالٍ نحته بفكره واتَّخذه إلهاً من دون الله،وإلهُ الرسلِ وراءَ ذلك كله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:٣-٤].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة:٤-٩].

فقد تعرَّفَ سبحانه إلى عباده بكلامه معرفةً لا يجحدها إلاَّ مَن أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقرّ به.

والمقصودُ أنَّ التعبُّدَ باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربّاً يقصده، وصَمَداً يصمدُ إليه في حوائجه، وملجأً يلجأُ إليه؛ فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربَّه باسمه الظاهر استقامت له عبوديَّتُه، وصار له معقل وموئل يلجأُ إليه، ويهربُ إليه، ويفرُّ كُلَّ وقت إليه.

وأما تعبُّده باسمه الباطن فأمر يضيقُ نطاق العبير عن حقيقته، ويكلُّ اللسانُ عن وصفه، وتصطلم الإشارةُ إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزمُ معرفةً بريئةً من

شوائب التَّعطيل، مخلصة من فَرْث التشبيه، منزّهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدّية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رُزق هذا فَهِمَ معنى اسمه الباطن وصحّ له التعبُّد به». [طريق الهجرتين: ٤٩-٥٠].

٣- من لوازم اسمه الظاهر أن لا يكون فوقه شيء:

«من لوازم اسمه «الظاهر»: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي ﷺ : «وأنْتَ الظّاهرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ» [رواه مسلم] بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فَوْقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصحُ أن يكونَ «الظاهر» هو من له فوقيةُ القدر فقط، كما يقال: الذهبُ فوقَ الفضة، والجوهرُ فوقَ الزجاج، لأنّ هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ: «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء». [مدارج السالكين: ١/ ٥٥].

٤- مدار أسماء الله: الأول والآخر والظاهر والباطن على الإحاطة:

أطال ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح أسماء الله الأربعة، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن في كتابه [طريق الهجرتين: ص٥٤] ونقلها عنه الشيخ حافظ حكمي [معارج القبول: ١/ ١٣٥]، فقال: «قال ابن القيم رحمه الله تعالى في أثناء كلامه على هذه الأسماء الأربعة وهي: «الأول والآخر والظاهر والباطن»: هي من أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه، واعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء.

ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه،وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماءً ولا أرض أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً». [معارج القبول: ١/ ١٣٥].

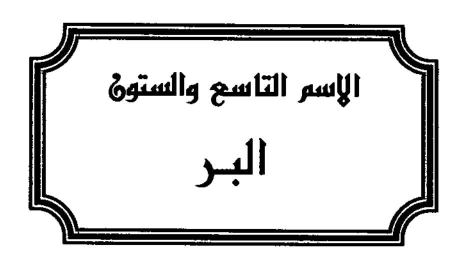
٥- علاج من وجد في نفسه وسوسة:

ذكر ابن القيم رحمه الله أن ابن عباس نصح رجلاً إذا وجد في نفسه وسوسة لها تعلق بالغ عليه أن يقرأ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣].

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي

ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه، وكل شيء قائم به موجود بذاته، وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باقٍ لذاته، وبقاء كل شيءٍ به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء».

[بدائع التفسير: ٣٨٤].



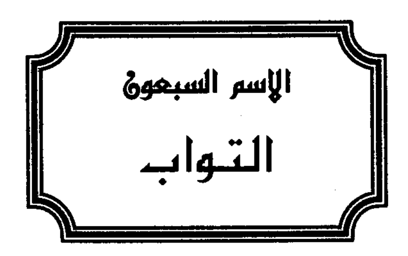
الاسم التاسع والستون

البر

«الله – تبارك وتعالى كما يقول ابن القيم – البرُّ، ويحب أهل البر، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البرّ، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه، بحسب ما اتصفوا به من الفجور». [الفوائد: ١٤٥].

ومن برّه سبحانه بعبده ستره عليه ما ارتكبه من المعاصي، وفي ذلك يقول ابن القيم: «ومنها أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال برّه، ومن أسمائه البَرُّ، وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه وكمال فقر العبد إليه». [مدارج السالكين: ١/ ٢٣٧].

وقال مثنياً على ربّه: «تبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف». [مدارج السالكين].



الاسم السبعون

التواب

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى اسم الله «التواب» في أسماء الله الحسنى، فمن ذلك قوله: «من دعا الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور»، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه» [بدائع الفوائد: ٢/ ١٢٣].

وفي كتابه [شفاء العليل: ٢/ ٦٦٢] ذكر أن «من الحكمة في إخراج آدم من الجنة اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها، كالغفور الرحيم التواب».

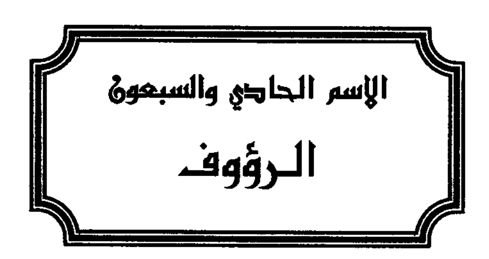
وقال في [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٥٥]: «الله الغفار التواب العفو الرحيم».

وقال ابن القيم في «نونيته» في اسم الله «التواب»:

وكذلك التواب من أوصافه	والتوب في أوصافه نوعان
إذن بتوبة عبده وقبولها	بعد المتاب بمنَّة المنان

وقال ابن القيم مبيناً مراده من اسمه التواب:

«ومنها تعريفه عبادَهُ كَرَمَهُ سبحانهُ في قَبُولِ توبتهِ ومغفرتِه لهُ على ظُلمهِ وإساءتهِ، فهو الذي جادَ عليهِ بأنْ وفَّقهُ للتَّوبَةِ، وأَلْهَمَهُ إيَّاها، ثمَّ قَبِلَها منهُ فتابَ عليهِ أَوَّلاً وآخراً، فتوبَةُ العَبدِ محفوفَةٌ بتوبَةٍ قَبلَها عليهِ منَ الله إذْناً وتوفيقاً، وتوبَةٍ ثانيَةٍ منهُ عليهِ قَبولاً ورِضاً، فلهُ الفَضلُ في التَّوبَةِ والكرمِ أَوَّلاً وآخراً لا إلهَ إلا هو». [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٧٣].



الاسم الحادي والسبعون

الرؤوف

أورد ابن القيم رحمه الله اسم «الرؤوف» في كثير من المواضع في مدوناته، ولم أره فسّر هذا الاسم، أو تعرض له بالشرح والبيان.

ففي [تحفة المودود:١١٩] بيّن أن من أسمائه ما «يجوز أن يخبر عن معانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمى بها على الإطلاق، وقد قال في ذلك، ذاكراً فيها اسمه الرؤوف «أسماء الله التي تطلق على الله وعلى غيره، كالسميع والبصير، والرؤوف والرحيم»، فيجوز أن يخبر عن معانيها عن المخلوق، ولا يجوز أن يتسمى بها على الإطلاق، بحيث يطلق عليه كما يطلق على الرب تعالى».

وذكر في [طريق الهجرتين: ٥٩٥] أن ما أطلقه على نفسه سبحانه من الأسماء كالرحيم والرؤوف أكمل من الشفيق والمشفق.

وبيّن في كتابه [مدارج السالكين: ٢/ ١٤١] أن التوكل على الله تعالى له علاقة بأسمائه: «الغفار التواب العفو الرؤوف الرحيم وتعلق باسمه الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن» .

الاسم الثاني والسبعون

المقسط

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى «المقسط» في أسمائه الحسنى، وفي ذلك يقول: «الله له من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار، الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل، العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك، المقسط الجامع». [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

الاسم الثالث والسبعون

الجامع

وجدت ابن القيم رحمه الله تعالى سمى الله باسم الجامع، ولم أجده تعرض له بالشرح والتفسير، فقال: «لله من معاني الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع المعز المذل، العظيم الجليل الكبير الحسيب، المجيد الوالي المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك». [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

الاسم الرابع والسبعون

الغني

١- معنى اسم الله الغني:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الرب هو الغني بذاته، الذي كل ما سواه يحتاج إليه، وليس به حاجة إلى أحد». [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٨٧].

وقال: «إذا كان الله غنياً عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار». [بدائع الفوائد: ٢/ ٤١، طبعة دار الخير].

وقال أيضاً: «دلّ البرهان الضروري والعقل الصريح على استغنائه سبحانه بنفسه، وأنه الغني بذاته عن كل ما سواه، فغناه من لوازم ذاته، ولا يكون غنياً على الإطلاق إلا إذا كان قائماً بنفسه، إذ القيام بالغير يستلزم فقر القائم إلى ما قام به، وعدم القيام بالنفس وبالغير يستلزم العدم، فصح ضرورة وجوب قيامه بنفسه». [الصواعق المرسلة: ٤/ ١٣٣١].

٢- الله محسن إلى عبده مع غناه عنه:

قال ابن القيم رحمه الله في هذا: «الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحساناً، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١] فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم». [إغاثة اللهفان: ١/ ٤١].

٣- غنى الله عن عباده وفقرهم إليه:

أورد ابن القيم قول الله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] ثم قال: «بيَّن سبحانه في هذه الآية أنَّ فَقْرَ العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً أمر ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر مَن سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير؛ فحاجةُ العبد إلى ربِّه لذاته لا لعلّةٍ أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب عزّ وجلّ لذاته لا لأمرٍ أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميّة:

والفقــرُ لي وَصْــفُ ذاتٍ لازمٌ أبــداً   كـما الغنــى أبــداً وصــف لَـهُ ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلّة، وكل ما يذكر ويقرّر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلّة على الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلّل، فالفقيرُ بذاته محتاجٌ إلى الغنيّ بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له، ولهذا كان الصواب في مسألة علّة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلِّمون، فإن الفلاسفة قالوا: علّةُ الحاجة الإمكان، والمتكلمون قالوا: علّة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان

والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلّل، فهو فقير بذاته إلى ربه الغنيّ بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه عزّ وجل، كما أخبر عن ذاته المقدّسة وحقيقته أنه غنيٌّ حميد، فالفقر المطلق من كلّ وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب تعالى إلا غنيّاً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً».

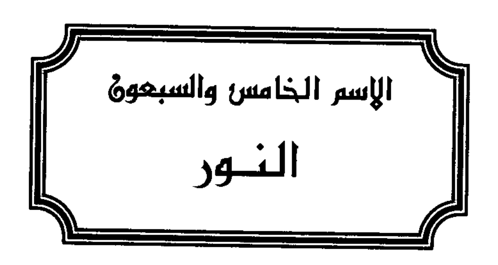
[طريق الهجرتين: ٢٧، ٢٨].

٤- الله غني عن جنات النعيم:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أنه «سبحانه ما أخرج آدم من الجنة إلا وهو يريد أن يعيده إليها، أكمل إعادة، كما قيل على لسان القدر: يا آدم، لا تجزع من قولي لك: اخرج منها، فلك خلقتها، فإني أنا الغني عنها، وعن كل شيء، وأنا الجواد الكريم، وأنا لا أتمتع فيها، فإني أُطعِم ولا أُطْعَم وأنا الغني الحميد». [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٢٤].

٥- لكمال غنى الرب تبارك وتعالى استحال إضافة الولد والصاحبة إليه:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «ولكمال غنى الله استحال إضافةُ الولد والصَّاحبة والشَّريك والشَّفيع بدون إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوّه وسع كرسيّه السماوات والأرض، ولم تسعه أرضه ولا سماواته، ولم تحطْ به مخلوقات، بل هو العالي على كُلِّ شيء، وهو بكُلِّ شيءٍ مُحيطٌ». [طريق الهجرتين: ٢٣٥].



الإسم الخامس والسبعون

النـور

١- النور اسم من أسماء الله تبارك وتعالى:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «سمى الله – سبحانه وتعالى – نفسه نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نوراً تتلألأ» [اجتماع الجيوش الإسلامية: ٤٤].

وقال: «الله تبارك وتعالى نور السموات والأرض، ومن أسمائه النور، والظلمات أشرقت لنور وجهه». [الوابل الصيب: ١١٥. طبعة مجمع الفقه].

وقال في موضع ثالث: «اسم النور أحد الأسماء الحسنى». [اجتماع الجيوش الإسلامية: ٤٥].

٢- نور وجه الله تبارك وتعالى:

ولوجه الله نور أشرقت له الظلمات، ففي الحديث الذي أورده ابن القيم الذي دعا به النبي ﷺ يوم الطائف: «أعوذ بنُورِ وَجْهِك الذي أشْرَقَتْ له الظُّلمات، وصَلَح عليه أمْرُ الدنيا والآخرة أنْ يَحِلَّ عليَّ غَضَبُك، أو يَنْزِلَ بي سَخَطُك، لك العُتْبى حتى تَرْضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك». [عزاه محقق الكلم الطيب (١١٥) طبعة مجمع الفقه إلى الطبراني في الكبير، والضياء في المختارة وغيرهما، وذكر أن إسناده حسن] [الوابل الصيب: ١١٥، طبعة مجمع الفقه].

٣- إشراق الأرض لنور وجه الله:

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] وذكر أن هذا يكون عندما يأتي «تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين

عباده، فتشرق بنوره الأرض، وليس إشراقها يومئذ بشمسٍ ولا قمر؛ فإن الشمس تُكَوَّر، والقمر يخسف، ويَذْهَبُ نورُهما، وحجابُهُ تبارك وتعالى النور».

وأورد ابن القيم قول أبي موسى الأشعري: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلماتٍ فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ القِسْط ويَرْفَعُه، يُرْفَعُ إليه عمل الليلِ قبل عمل النَّهار، وعملُ النهارِ قبل عملِ الليل، حِجابُه النُّور، لو كشفه لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه». ثم قرأ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨]». [عزاه محقق الكلم الطيب (١١٧) إلى مسلم إلا قراءة أبي عبيدة للآية].

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره.

ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل، وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً، ساخ الجبل في الأرض، وتدكدك، ولم يقم لربه تبارك وتعالى.

وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] قال: «ذلك الله عز وجل، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء». [عزاه محقق الكتاب (١١٧) إلى الترمذي وابن أبي عاصم وغيرهما] [الوابل الصيب: ١١٦، ١١٧. طبعة مجمع الفقه].

٤- الله نور السموات والأرض:

أورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ثم قال وقد فسر: ﴿... نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الآية، بكونه: منور السموات

والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه، قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها وإضافة مفعول إلى فاعله. فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾ الآية [الزمر:٦٩] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت» وفي الأثر الآخر: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجهه، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني، والسنّة له، وكتاب عثمان الدارمي، وغيرها، عن ابن مسعود ؓ قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه» وهذا الذي قاله ابن مسعود ؓ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض «وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض» فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها، وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» [رواه مسلم] [اجتماع الجيوش الإسلامية: ٤٤-٤٦].

الاسم السادس والسبعون

بديع السموات والأرض

قال ابن القيم رحمه الله تعالى مقرراً أن الله بديع السموات والأرض ومبدعهما، مبيناً معناهما، «وكذلك مبدع الشيء وبديعه لا يصح إطلاقه إلا على الربِّ تعالى كقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة:١١٧] والإبداع إيجاد المبدَع على غير مثال سبق،والعبد يسمى مبتدعاً لكونه أحدث قولاً لم تمضِ به سنة، ثم يقال لمن اتبعه عليه: مبتدع أيضاً». [شفاء العليل: ١/ ٣٩٣].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى قوله سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] راداً على الذين ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [البقرة:١١٦] في الآية السابقة، ثم قال: «فهذه الآية أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه، ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [الأنعام:١٠١] أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد!

ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما، وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما ألبتة فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيراً وشريكاً وجزءاً مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان

قد ابتدع العالم علويه وسفليه فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي، فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك».

[بدائع التفسير: ١/ ٣٣٥].

الاسم السابع والسبعون

الرفيق

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن العبد يتعبد باسم الله: «البر اللطيف المحسن الرفيق، فإنه رفيق يحب الرفق» [مدارج السالكين: ٢/ ٣١٨].

ثم قال: وفي الصحيح «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري ومسلم] ثم قال: «لما فيه من روح التعبد باسم الرفيق، اللطيف، وإجمام القلب به لعبودية أخرى». [مدارج السالكين: ٢/ ٣١٨].

وذكر ابن القيم أن «الله رفيق يحب الرفق». [الوابل الصيب].

الاسم الثامن والسبعون

الـوارث

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى اسمه «الوارث» في أسمائه، ولم أجده شرحه بشيء في كتبه، فمن ذكره له قوله: «من أسمائه الغفور الرحيم، العفو، الحليم، الخافض الرافع، المعز المذل، المحيي المميت، الوارث، الصبور» [مفتاح دار السعادة: ١/١٠٦-١٠٧].

الاسم التاسع والسبعون

الرشيد

ذكر ابن القيم اسم «الرشيد» في أسمائه تعالى، وفي ذلك يقول: «رشيد يحب الرشد، وهو الذي جعل من يحبه كذلك». [شفاء العليل: ١/ ٣٢٣].

وقال: «كون الله تعالى متكلماً معلماً مرشداً مقدراً لغيره، فإن ذلك فرع كونه في نفسه متكلماً عالِماً رشيداً قادراً». [مختصر الصواعق: ٢/ ٤٠٥].

وقال ابن القيم في نونيته:

وهــو الرشــيد فقولــه وفعالــه ... رشــد وربُّــك مرشــد الحــيران

وكلاهمــا حــق فهــذا وصــفه ... والفعــل للإرشــاد ذاك الثــاني

الاسم المتمم للثمانين

الصبور

١- معنى اسم الله «الصبور»:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «في أسمائه الحسنى: الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبّار، وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه على قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوفُ الغوثَ.

منها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما، وظهور أثر هذا الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم، والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء:١٢].

وفي أثر: أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، فإن المخلوق يحلم عن جهل، ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من

حلم إلى علم، ومن عفو إلى اقتدار، ولهذا كان في دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليماً من لوازم ذاته سبحانه». [عدة الصابرين: ٣٠٦-٣٠٧].

٢- الدليل الدال على اسمه الصبور:

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن أبي عبدالرحمن السلمي، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبر على أذى سمعه؛ من الله عز وجل، يدعون له ولداً، وهو يعافيهم ويرزقهم». [البخاري في الأدب ومسلم في صفات المنافقين] [عدة الصابرين: ٣٠٥].

٣- صبر الحق تبارك وتعالى على كفر العباد ومعاصيهم:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «وأما صبره سبحانه فمتعلِّق بكفر العباد وشركهم، ومسبَّتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عليه، حتى إذا لم يبقَ فيه موضع للصنيعة، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الإعذار إليه، وبذل النصيحة له، ودعائه إليه من كل باب، وهذا كُلّه من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول». [عدة الصابرين: ٣٠٦].

٤- الله أحق بالصبر من جميع الخلق:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «لو أن العباد أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم والرحيم، والقدير والسميع والبصير، والحي، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرفُ خلقه به قال: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله»، فَعِلْمُ أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبرٌ مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١] وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهمّ وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد في مسنده، وضعفه الشيخ أحمد شاكر] وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

وكذلك خرور الجبال وتفطير السماوات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجّار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها». [عدة الصابرين: ٣٠٦-٣٠٧].

٥- لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، وقد قيل: إن الله سبحانه أوحى إلى داود «تخلَّقْ بأخلاقي فإن من أخلاقي أني أنا الصبور» والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد، فإنه جميل يحب الجمال، عفوٌّ يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحبّ الصابرين، شكور يحب الشاكرين، وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف».

[عدة الصابرين:٥٦].

٦- من تعلق بصفة من صفات الرب أدخلته تلك الصفة على الله:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة على الله، وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور».

الاسم الحادي والثمانون والثاني والثمانون

الحنان المنان

أورد ابن القيم – رحمه الله تعالى – الحديث الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» وضم اسمي الله: الحنّان المنّان، وهو قوله ﷺ : «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنّان المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» وعقّب على ذلك قائلاً: «وهذه الكلمات تتضمن أسماء الله الحسنى، كما ذكر في غير هذا الموضع». [بدائع التفسير: ١/ ٤٩٢].

وأورد ابن القيم هذا الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد، وفيه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام» ثم قال: «فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصّره الله تعالى». [بدائع الفوائد: ١/ ١٤٥، طبعة دار الخير].

وبيّن ابن القيم رحمه الله تعالى شهود اسم الله المنان على قلب عبده، فقال: «فإذا وصل إلى القلب نورُ صفة المنّة، وشهد معنى اسمه المنّان، وتجلّى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول، ذهل القلب والنفس به، وصار العبدُ فقيراً إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأوَّل، فصار مقطوعاً عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوماً مقطوعاً عن رؤية عِزّة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته.

فصاحبُ شهود الأحوال منقطعٌ عن رؤية منّة خالقه، وفضله، ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها، وغائب بمشاهدة عِزّة نفسه عن عِزّة مولاه، فينعكسُ هذا الأمرُ في حقّ هذا العبد الفقير، وتشغله رؤيةُ عِزّة مولاه ومنّته ومشاهدة سبقه بالأوّلية عن حالٍ يعتزّ بها العبدُ أو يشرفُ بها». [طريق الهجرتين: ٥٧].

الاسم الثالث والثمانون

القريب

١- معنى اسم الله «القريب»:

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله تعالى المتضمن اسمه القريب: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، ثم قال: «وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] ». [عزاه محقق الكتاب إلى عبدالله بن أحمد في السنّة، وقال المحقق: سنده منقطع].

وهذا يدلُّ على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم تبارك وتعالى قريبٌ لا يحتاجُ في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يُسْأَلُ مسألةَ القريب المُناجَى لا مسألةَ البعيد المُنَادَى.

وهذا القربُ من الدَّاعي هو قربٌ خاصٌّ ليس قُرْباً عامّاً من كلِّ أحدٍ، فهو قريبٌ من داعيه وقريبٌ من عابده، وأقرب ما يكون العبدُ من رَبِّه وهو ساجِدٌ، وهو أخصُّ من قربِ الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يُثْبِتْ أكثرُ المتكلمينَ سواه، بل هو قُرْبٌ خاصٌّ من الدَّاعي والعابد، كما قال النبيُّ ﷺ راوياً عن ربِّه تبارك وتعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً»، فهذا قربُهُ من عابدِه.

وأما قربُهُ من داعيه وسائلِه، فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥]، فيه الإشارةُ والإعلامُ بهذا القُرْب. [بدائع الفوائد: ٣/ ٨٤٤].

٢- على الداعي أن يستحضر قرب الله عند الدعاء:

أورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣] ثم قال: «كلما استحضرَ القلبُ قربَ الله تعالى منه، وأنه أقربُ إليه من كلِّ قريبٍ، وتصوَّر ذلك أخفى دعاءَه ما أمكنه، ولم يَتَأَتَّ له رفعُ الصوتِ به، بل يراه غيرَ مستحسن، كما أن من خاطبَ جليساً له يسمع خَفِيَّ كلامِه، فبالغ في رفع الصوتِ استهجن ذلك منه – ولله المثل الأعلى سبحانه – وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابةُ أصواتَهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِباً، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً، أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»». [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري ومسلم] [بدائع الفوائد: ٨٤٥].

الاسم الرابع والثمانون

الله جميل يحب الجمال

١- معنى اسم الله «الجميل»:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى متحدثاً عن جمال ربنا تبارك وتعالى: «الله جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والجمال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه». [الجواب الكافي: ٣٣١].

وقال أيضاً: «من أسماء الله الحسنى الجميل، وفي الصحيح عنه ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال» [مسلم وابن ماجه] ». [الفوائد: ٢٠٢].

وقد روى عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» [عزاه محقق الكتاب إلى مسلم والترمذي وغيرهما] عبدُالله بن عَمْرو بن العاص، وأبو سعيد الْخُدْري، وعبدالله ابن مسعود، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وثابت بن قيس، وأبو الدَّرداء، وأبو هريرة، وأبو ريحانة رضي الله عنهم.

ومن أسمائه الحسنى: الجميلُ، ومَن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صُنعه، فله جمالُ الذّات، وجمال الوصف، وجمالُ الأفعال، وجمالُ الأسماء، فأسماؤه كلُّها حُسْنى، وصفاتُه كلُّها كمال، وأفعاله كلها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدنٍ أنستهم رؤيتُه ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره، ولولا حجابُ النور عَلى وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما هو في صحيح البخاري من حديث أبي موسى ﷺ قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال:

«إنّ اللهَ لا يَنامُ ولاَ يَنبَغِي لَهُ أنْ يَنامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انتَهى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». [روضة المحبين: ٣٩٥-٣٩٦].

٢- معرفة الله بجماله معرفة خواص الخلق:

قال ابن القيم في هذا: «من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة، وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه، لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويكفي في جماله أن كلَّ جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً، والقوة جميعاً، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة».

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره». [الفوائد:٢٠٢].

٣- جمال الله سبحانه على أربع مراتب:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة.

وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار كما قال رسوله ﷺ فيما يحكي عن ربّه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري». ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء، فإنه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العلي العظيم.

قال ابن عباس: حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال، وستر بنعوت العظمة والجلال.

ومن هذا المعنى بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات. فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات».

[الفوائد: ٢٠٢-٢٠٣].

٤- يعرف الله سبحانه بالجمال ويعبد بالجمال:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «يعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك». [الفوائد:٢٠٧].

الاسم الخامس والثمانون والسادس والثمانون

الحيي الستير

١- الحيي الستير من أسماء الله سبحانه:

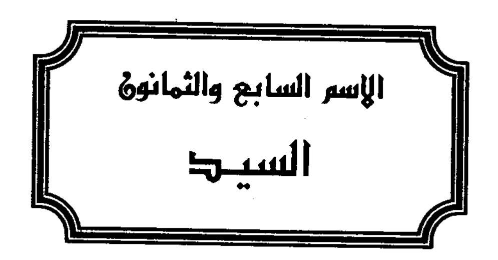
الله تبارك وتعالى – كما يقول ابن القيم – : «حيي يحبُّ الحياء، ستّار يحب أهل الستر، قوي يحب أهل القوة من المؤمنين» [شفاء العليل: ١/ ٣٢٣].

وقال مثنياً على ربّه تبارك وتعالى: «حيي ستير يحب أهل الحياء والستر، غفور عفو، يحبُّ من يعفو عن عباده ويغفر لهم». [طريق الهجرتين: ٢٣٦].

٢- النصوص الدالة على أن اسمه الحيي:

قال ابن القيم مدللاً على أن الحيي من أسماء الله تعالى: «وصف الله نفسه بالحياء، ووصفه رسوله، فهو الحيي الكريم، كما قال النبي ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً». [عزاه محققه إلى الترمذي وأبي داود، وقال الترمذي: حسن غريب]، وقالت أم سليم: يا رسول الله: «إن الله لا يستحي من الحق» [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري في كتاب العلم] وأقرها على ذلك، وقال النبي ﷺ: «إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن». [رواه الترمذي وابن ماجه] ».

[الصواعق المرسلة: ٤/ ٤٩٩].



الاسم السابع والثمانون

السيد

أفاد ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو بمعنى المالك والمولى والرب، لا بالمعنى المطلق على المخلوق». [بدائع الفوائد/ المجمع: ٣/ ١١٧٦].

وذكر ابن القيم أن: «ابن عباس فسر الصمد بقوله: هو السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، وقال أبو وائل: هو الذي انتهى في سؤدده، وقال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء.

وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة، أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم». [بدائع الفوائد/ مجمع: ١/ ٢٨٢-٢٨٣].

وذكر ابن القيم: «أن الناس اختلفوا في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا، قال: «إنما السيد الله» [عزاه محقق كتاب بدائع الفوائد (٣/ ١٧٥) إلى أحمد في مسنده وأبي داود والنسائي في الكبرى، وقال: إسناده صحيح].

وجوزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم». [عزاه محقق بدائع الفوائد (٣/ ١٧٥) للبخاري ومسلم]. وهذا أصح من الحديث الأول». [بدائع الفوائد: ٣/ ١١٧٥].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في وصف الرب تبارك وتعالى: «بأنه السيد فذلك وصفٌ لربه على الإطلاق، فإنَّ سَيِّدَ الخَلْقِ هو مالِكُ أمرِهِم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدرون، فإذا كانت الملائكة والإنس والجن خَلْقاً له سبحانه وتعالى ومُلْكاً له، ليس لهم غنى عنه طَرْفَةَ عَيْن، وكلُّ رغباتهم إليه، وكلُّ حوائجهم إليه، كان هو سبحانه وتعالى السَّيِّدَ على الحقيقة». [تحفة المودود: ١١٨].

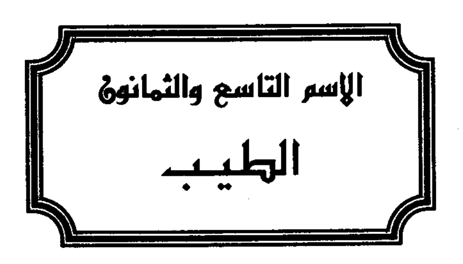
الاسم الثامن والثمانون

شديد العقاب

نقل ابن القيم عن السهيلي «أن الله قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣] بغير واو العطف، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة، وهو معنى خارج عن صفات الأفعال». [بدائع الفوائد: ٢/ ١٧١].

ثم قال ابن القيم: «تأمل كيف وقع الوصف بـ ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣] بين صفة رحمة قبله، وصفة رحمة بعده، فقبله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣] وبعده ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:٣] ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له، وهو قوله ﷺ : «إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ: «تسبق غضبي» [عزاه محقق الكتاب (١/ ١٧٢) إلى البخاري ومسلم والترمذي وأحمد]». [بدائع الفوائد: ١/ ١٧٢ طبعة دار الخير].

وقال أيضاً: «الله على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وهو شديد العقاب». [مفتاح دار السعادة: ١/ ٥٥١].



الاسم التاسع والثمانون

الطيب

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله هو الطيب وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، فكله طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، وفعله طيب، والعمل الطيب يعرج إليه.

والطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتهية إليه، قال النبي ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً» وفي حديث رقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره «أنت رب الطيبين».

ولا يجاوره من عباده إلاّ الطيبون كما يقال لأهل الجنة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣].

وقد حكم سبحانه شرعه وقدره أن الطيبات للطيبين، فإذا كان هو سبحانه الطيب على الإطلاق، فالكلمات الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات، كلها له سبحانه لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلاّ بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته». [الصلاة:١٣١].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى متحدثاً عن اسم الله الطيب: «وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، فكانت الطيبات كلها له ومنه

وإليه، له ملكاً ووصفاً، ومنه مجيئها وابتداؤها، وإليه مصعدها ومنتهاها، والصلاة مشتملة على عمل صالح، وكلم طيّب، والكلم الطيب إليه يصعد، والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى». [بدائع الفوائد: ٢/ ١٦٣ طبعة دار الخير].

الاسم التسعون

الفعال لما يريد

ذهب ابن القيم إلى أن قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] دليل على أمور.

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

والثاني: أنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه. وهذا عين الباطل. وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس. [التبيان:٦١-٦٢].

الاسم الحادي والتسعون

المنعم

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى اسم الله «المنعم» في أسماء الله الحسنى، فقال: «الرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله هو الرب بهذه الاعتبارات كلها» [بدائع الفوائد: ٤/ ١١٣].

وقال: «فإن الرب هو: الخالق البارئ المصور، الحي القيوم، العليم السميع البصير المنعم الجواد المعطي» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

وأطال ابن القيم رحمه الله تعالى في الحديث عن صنوف النعم التي أنعم الله بها على خلقه، فقال: «الربُّ تبارك اسمه، وتعالى جَدّه، ولا إله غيره، هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادهم نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم ومحبته ومعرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعاشهم نعمة منه.

وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه، ولا قدرة للبشر عليه، ويكفي أنّ النَّفَسَ من أدنى نعمه التي لا يكادون يعتدون بها، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في كل يوم وليلة، فلله على العبد في النفَس خاصة أربعة وعشرون ألف نعمة كل

يوم وليلة، دَعْ ما عدا ذلك من أصناف نعمه على العبد، ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وزعت طاعات العبد كلَّها على هذه النعم، لم يخرج قسط كل نعمة منها إلا جزءاً يسيراً جداً، لا نسبة له إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه.

قال أنس بن مالك، ينشر للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم، وديوان فيه العمل الصالح فيأمر الله تعالى أصغر نعمة من نعمه فتقوم تستوعب عمله كله ثم تقول: أي ربِّ، وعزتك وجلالك ما استوفيت ثمني، وقد بقيت الذنوب والنعم، فإذا أراد الله بعبد خيراً قال: ابن آدم، ضعَّفْتُ حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك، ووهبت لك نعمي فيما بيني وبينك». [شفاء العليل: ١/ ٣٤٥-٣٤٥. وللكلام بقية فراجعه إن شئت].

الاسم الثاني والتسعون

المحسن

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في أسماء الله الحسنى اسم «المحسن» وفي ذلك يقول: «الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد». [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢، طبعة دار الخير].

ودعا ابن القيم العباد إلى «أن يعلموا أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيحبه لإحسانه وإنعامه، ويحمده على ذلك، فيحبه من الوجهين جميعاً». [الفوائد: ٢٠٤].

وقال في موضع ثالث: «الرب سبحانه كامل في أوصافه وأسمائه وأفعاله، فلا بدَّ من ظهور آثارها في العالم، فإنَّه محسن، ويستحيل وجود الإحسان بدون من يحسن إليه». [شفاء العليل: ٢/ ٥٩٨].

وقال أيضاً: «الإحسان صفة الله، وهو المحسن، ويحب المحسنين». [بدائع التفسير: ٣/ ٢٥٣].

وقرر ابن القيم أن: «اسم البر المحسن المعطي المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها». [مدارج السالكين].

الاسم الثالث والتسعون

الوتر

من أسماء الله تعالى «الوتر». وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وتراً، كما قال النبي ﷺ «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت» [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري ومسلم وأحمد] وأما الزمان فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين، وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء، وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده، وعنه رواية ثالثة، الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث، وقال عمران بن حصين، وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثاً مرفوعاً، وقال عطية العوفي: الشفع: الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨] والوتر: هو الله، وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر، وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق، وقال الحسن: الشفع والوتر: العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر: الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخرى، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين: **أحدهما**: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات، **والثاني**: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق». [التبيان: ٢٢-٢٣].

الاسم الرابع والتسعون والخامس والتسعون

المعطي المانع

ذكر ابن القيم أن من أسماء الرب تعالى: «القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع». [بدائع الفوائد].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام» [الفوائد:١٥١].

وقال في موضع آخر: «مصدر ما في العبد من الخير والشر والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطي المانع، فهو سبحانه يصرف عباده بين مقتضى هذين الاسمين، فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع، فهو – سبحانه – يعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه، فلا يزال شكوراً فقيراً». [الفوائد:٩١].

وأورد في [جلاء الأفهام] الحديث الدال على هذين الاسمين، فقال: «قال النبي ﷺ : «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت». [رواه البخاري ومسلم].

وقال في «نونيته» في اسمي الرب «المعطي المانع»:

هـو مـانع معـط فهـذا فـضله والمنـع عـين العـدل للمنـان

يعطـي برحمتـه مـن يـشا ء بحكمـة والله ذو الـسلطان

الاسم السادس والتسعون والسابع والتسعون

المحيي المميت

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن من أسماء الله الحسنى: المحيي المميت، فمن ذلك قوله: «أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق والرازق والمحيي، والمميت». [بدائع الفوائد: ١/ ١٤٨].

وقال: «ومن الحكمة في إخراج آدم من الجنّة اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها، كالغفور الرحيم التواب، العفو المنتقم، الخافض الرافع، المعزّ المذل، المحيي المميت». [شفاء العليل: ٢/ ٦٦٢].

وقال أيضاً: «الله سبحانه له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: الغفور الرحيم العفو الحليم، الخافض الرافع، المعز المذل، المحيي المميت، الصبور». [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٠٦].

وذكر في [إغاثة اللهفان]: «أنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها وربُّها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها».

الاسم الثامن والتسعون والتاسع والتسعون

المعز المذل

ذكر ابن القيم في مواضع من كتبه أن من أسمائه الحسنى: المعز المذل، فمن ذلك قوله: «المعطي المانع، الضار النافع، المعز المذل». [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢] وذكر في [شفاء العليل: ٢/ ٥٩٨] أن من أسمائه: «قابض باسط، وخافض رافع، ومعز مذل». وقال في [شفاء العليل: ٢/ ٦٠٩] أيضاً: «من أسمائه المزدوجة: المعز المذل، الخافض الرافع، والقابض الباسط، المعطي المانع».

وقال أيضاً: «من أسمائه سبحانه: الخافض الرافع، المعز المذل، الحكم العدل، المنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولا من ظهور معلقات هذه وهذه». [شفاء العليل: ٢/ ٦٥٢] وهذا كثير في كتبه، ولكنه لم يعرض لها بالشرح والبيان.

المبحث الخامس

ما أضافه الله سبحانه بـ «ذو» وإطلاق الله على نفسه «تبارك الله» مختصة به

أولاً: ما أضافه الله سبحانه بـ «ذو»:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أنَّ الله أضاف إلى نفسه بـ «ذو» بعض مخلوقاته العظيمة، وبعض صفاته القائمة به، وفي ذلك يقول: «أضاف العرش إلى نفسه، فقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥] كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص. كما يضيف إلى نفسه بـ «ذو» صفاته القائمة به، كقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات:٥٨]، ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] ويقال: ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض». [التبيان:٦٠].

ثانياً: إطلاق الله على نفسه «تبارك الله» مختصة به:

١- معنى تبارك:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقوله: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف:٨٥].

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:١].

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [الفرقان:١٠].

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان:٦١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، ولا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته فكذلك «تبارك» دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قِبَله، فالبركة كلها منه، وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه، وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل: معناه تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة، وقيل: تبارك، أي: باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك، أي: البركة تكتسب وتنال بذكره، وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

٢- حقيقة البركة:

«وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصْفاً وفعلاً منه تبارك وتعالى، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل «تعالى» و«تقدس» و«تعاظم».

ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس فكذلك «تبارك» لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر «تبارك» بمعنى «ألقى البركة» و«بارك في غيره» لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب «مجد» والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل، وبارك من باب «أعطى وأنعم»، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسَّر مَنْ فسّر مِنَ السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عِنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي»[1]، وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً، ورسوله مباركاً، وبيته مباركاً، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة». [بدائع الفوائد: ٢/ ١٥٩-١٦٠].

ثالثاً: المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ :

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن معنى «الصراط المستقيم: هو صراط الله، وهو يخبر أنه صراط عليه سبحانه، ويخبر أنه سبحانه على الصراطِ المستقيمِ، وهذا في موضعين من القرآن: في هود، والنحل.

---

(١) لعل مراده بالفتح المكي كتابه «جلاء الأفهام» فقد بحثت المسألة فيه مطولاً. انظر: جلاء الأفهام (ص٣٠٣-٣٠٨).

قال في هود: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود:٥٦].

وقال في النحل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل:٧٦]، فهذا مثلٌ ضربهُ اللهُ للأصنام التي لا تسمعُ، ولا تنطقُ ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصَّنمُ إلى أنْ يحملَهُ عابدُهُ، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يُسَوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادرٌ متكلمٌ، غنيٌّ، وهو على صراطٍ مستقيمٍ في قولهِ وفعلهِ، فقولُهُ صدقٌ ورشدٌ ونصحٌ وهدى، وفعلهُ حكمةٌ وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكرْ كثيرٌ من المفسرينَ غيره، ومن ذكرَ غيرَهُ قدَّمهُ على الأقوالِ، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي. فإنَّهُ جزم به، وجعله تفسير الآية، ثم قال: وقال الكلبي: يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالتُهُ لنا على الصِّراطِ هيَ من موجبِ كونِه سبحانه على الصِّراطِ المستقيم، فإنَّ دلالتَهُ بفعله وقوله، وهوَ على الصِّراطِ المستقيمِ في أفعالِهِ وأقواله، فلا يناقضُ قول من قال: إنَّهُ سبحانه على الصِّراطِ المستقيم.

قال: وقيل: هو رسولُ الله ﷺ يأمُرُ بالعدلِ، وهو على صراطٍ مستقيمٍ.

قلت: وهذا حقٌّ لا يناقضُ القولَ الأول، فاللهُ على الصِّراطِ المستقيم، ورسولُهُ عليه، فإنَّهُ لا يأمرُ ولا يفعلُ إلاَّ مقتضاهُ وموجبَهُ، وعلى هذا يكونُ المثلُ مضروباً لإمامِ الكفارِ وهاديهم، وهو الصنمُ الذي هو أبكم، لا يقدرُ على هدىً ولا خير، ولإمام الأبرار، وهو رسولُ الله ﷺ الذي يأمُرُ بالعدلِ، وهو على صراطٍ مستقيمٍ.

وعلى القولِ الأولِ: يكونُ مضروباً لمعبودِ الكفارِ ومعبودِ الأبرار. والقولانِ متلازمانِ، فبعضُهُمْ ذكَر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد في الآية. قال: وقيل: كلاهما للمؤمنِ والكفارِ، يرويهِ عطيةُ عن ابن عباس، وقالَ عطاءٌ: الأَبْكَمُ أُبيُّ ابنُ خلف، ومَنْ يأْمرُ بالعدل: حمزةُ وعثمانُ بن عفان، وعثمانُ بن مظعون.

قلت: والآيةُ تحتمله، ولا يناقضُ القولين قبلهُ، فإنَّ اللهَ على صراطٍ مستقيم، ورسولُهُ وأتباعُ رسولِه، وضدُّ ذلك معبودُ الكفارِ وهاديهم، والكافرُ التابعُ والمتبوعُ والمعبودُ، فيكونُ بعضُ السلفِ ذَكَرَ أعلى الأنواع، وبعضهم ذَكَرَ الهادي، وبعضهُمْ ذَكَرَ المستجيبَ القابلَ، وتكونُ الآيةُ متناولةً لذلك كله، ولذلك نظائرُ كثيرةٌ في القرآن.

وأمَّا آيةُ هود: فصريحةٌ لا تحتملُ إلاَّ معنىً واحداً، وهو أنَّ اللهَ سبحانه على صراطٍ مستقيم، وهو سبحانه أحقُّ مَنْ كانَ على صراطٍ مستقيم، فإنَّ أقوالَهُ كلها صدقٌ ورشدٌ وهدىً وعدلٌ وحكمةٌ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وأفعالُهُ كلها مصالحُ وحِكَمٌ، ورحمةٌ وعدلٌ وخيرٌ، فالشَّرُّ لايدخلُ في أفعاله ولا أقوالِهِ ألبتةَ، لخروجِ الشَّرِّ عنِ الصراطِ المستقيم، فكيف يدخلُ في أفعالِ مَنْ هو على الصراطِ المستقيمِ، أو أقوالِه؟ وإنَّما يدخلُ في أفعالِ من خرجَ عنه وفي أقوالِهِ.

وفي دعائه ﷺ: «لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيْرُ كُلُّهُ بيدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إليْك» [عزاه محقق الكتاب لمسلم في صحيحه] ولا يُلْتَفتُ إلى تفسيرِ مَنْ فسَّرهُ بقوله: والشرُّ لا يُتقربُ به إليكَ، أوْ لا يَصْعَدُ إليْكَ، فإنَّ المعنى أجلُّ مِنْ ذَلِكَ، وأكبرُ وأعظمُ قدراً، فإنَّ مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافهُ كلُّها كمال، وأفعاله كلها حِكَم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيلُ دخولُ الشرِّ في أسمائه أو أوصافِهِ، أو أفعالِهِ أو أقواله.

فطابِقْ بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وتأمَّلْ كيف ذَكَرَ هذا عَقيب قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود:٥٦]». [مدارج السالكين: ٤٢-٤٣].

وقال ابن القيم رحمه الله في موضع آخر في معنى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

«أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم، وهذا نظير قول رسوله هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٦]؛ فقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ نظير قوله: «ناصيتي بيدك» وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نظير قوله: «عدل فيّ قضاؤك» [عزاه محققه (٢/ ٢٨٥) إلى أحمد وأبي يعلى وغيرهما] ؛ فالأول ملكه، والثاني حمده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل؛ فهو على الحق في أقواله وأفعاله؛ فلا يقضي على العبد بما يكون ظالماً له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حسناته شيئاً، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئاً، ولا يؤاخذ أحداً بذنب غيره، ولا يفعل قط ما لا يُحمد عليه، ويُثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة، والغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق، يُجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحداً منهم شيئاً، ولا يقبل منهم إلا الإسلام له، والإيمان به، ثم حكى عن مجاهد من طريق شِبْل عن ابن أبي نجيح عنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: الحق، وكذلك رواه ابن جُرَيْج عنه.

وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، وهذا اختلاف عبارة، فإنه كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يُحُثُّكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه؛ وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس ما زعموا، ولا دليل على هذا المُقدَّر، وقد فَرَّق الله سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم؛ وإن أرادوا أن حَثَّه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم فقد أصابوا.

وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم أن مَردَّ العباد والأمور كلها إلى الله لا يفوته شيء منها، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك، وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه فهو حق.

وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره وفي ملكه وقبضته، وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية، وقد فَرَّق ﷺ بين قوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وبين قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فهما معنيان مستقلان.

فالقول قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه؛ وقال جرير يمدح عمر بن عبدالعزيز:

أمـــير المـــؤمنين عـــلى صراط إذا اعـــوجَّ المـــوارد مـــستقيم

وقد قال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:٣٩].

وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم؛ فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره؛ فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق». [أعلام الموقعين: ٢٨٥-٢٨٧. وراجع: الفوائد: ص٣٢، ٣٣].

المبحث السادس

ما لا يجوز إطلاقه على الله من الأسماء والصفات

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في مواضع من كتبه ومدوناته بعض الصفات والأسماء التي لا يجوز إطلاقها على الله تبارك تعالى، ومنها ما أخطأ بعض أهل العلم في نسبتها إليه سبحانه.

١- «آمين» ليست من أسماء الله تعالى:

قال ابن القيم: «روي عن بعض السلف أنه قال في «آمين»: إنه اسم من أسماء الله تعالى، وأنكرَ كثيرٌ من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه «آمين»، ولم يفهموا معنى كلامه، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه تبارك وتعالى، فإن معناها: استجِبْ وأعط ما سألناك، فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب، وهذا التضمُّن في «سلام عليكم» أظهر؛ لأن «السلام» من أسمائه تعالى، فهذا كشف سر المسألة، والله أعلم». [بدائع الفوائد: ٢/ ٦١٦].

٢- لا يجوز إطلاق لفظ «العشق على الله»:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «لا يطلق لفظ العشق على الله فإنه لما لم يردْ به سمع فإنه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه، واللفظُ الذي أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتمّ من هذا وأجلّ شأْناً وهو لفظ المحبة، فإنه سبحانه يوصف من كلّ صفة كمال بأكملها وأجلّها وأعلاها، فيوصفُ من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كُلّ ما يريد بإرادته كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]». [طريق الهجرتين:٤٩٤].

الاشتياق إلى الله:

وإذا كان العشق لا يجوز إطلاقه على الله، فإن لفظ الشوق مما يجوز إطلاقه، وفي ذلك يقول ابن القيم: «هل يطلق على العبد أنه يشتاق إلى الله وإلى لقائه؟ فهذا غير ممتنع، فقد روى الإمام أحمد في مسنده والنسائي وغيرهما من حديث حمّاد بن سلمة، عن عطاءِ بن السَّائب، عن أبيه، قال: صلَّى بنا عمّارُ بنُ ياسر صلاةً فأوْجَزَ فيها، فقلتُ: خَفَّفْتَ يا أبا اليقظان، فقال: وما عليَّ من ذلك، ولقد دعوتُ اللهَ بدعواتٍ سمعتُها من رسول الله ﷺ.

فلما قام تبعه رجلٌ من القوم فسأله عن الدعوات، فقال: «اللهمَّ بِعِلْمِكَ الغيبَ وقُدْرَتِكَ على الخَلْقِ أحْيِني مَا عَلِمْتَ الحياةَ خيراً لي، وتوفَّني إذا عَلِمْتَ الوفاةَ خَيْراً لي، اللهم إني أسألُكَ خَشْيَتَكَ في الغيب والشَّهادة، وأسألُكَ كَلِمَةَ الحقِّ في الغضبِ والرِّضا، وأسألك القصدَ في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يَنْفَدُ، وأسألُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تنقطعُ، أسألُكَ الرِّضا بعد القضاء، وأسألُكَ بَرْدَ العيشِ بعد الموت، وأسألك لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وجهك والشَّوْقَ إلى لقائك؛ في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ. اللهم زينَّا بزينةِ الإيمان، واجعلنا هُدَاةً مهتدين» [عزاه محققه إلى أحمد في مسنده، والنسائي في سننه].

فهذا فيه إثباتُ لذَّةِ النظر إلى وجهه الكريم، وشوق أحبابه إلى لقائه، فإنَّ حقيقةَ الشوق إليه هو الشوقُ إلى لقائه، قال أبو القاسم القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي يقول في قوله ﷺ: «أسألُكَ الشَّوْقَ إلى لقائك» قال: كان الشوقُ مئة جزءٍ، فتسعة وتسعون له، وجزءٌ متفرّق في الناس: فأراد أن يكون ذلك الجزءُ له أيضاً، فغار أن تكون شظية من الشوق في غيره». [طريق الهجرتين: ٥٩٨].

٣- الهَوِيّ ليس من أسماء الله تبارك وتعالى:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن ابن حزم رحمه الله وعفا عنه، غلط أقبح الغلط، فقد ذكر في أسماء الرب تعالى: الهَوِيّ بفتح الهاء، فقال: «هاهنا أمر يجب

التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى «الهَوِيّ» بفتح الهاء، واحتج بما في الصحيح، من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» الهَوِيّ. فظن أبو محمد: أن الهَوِيَّ صفة للرب، وهذا من غلطه رحمه الله، وإنما الهَوِيّ على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل، يقال: مضى هَوِيّ من الليل، على وزن فعيل، ومضى هزيع منه، أي: طرف وجانب، وكان يقول: «سبحان ربي الأعلى» في قطعة من الليل وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول: «سبحان ربي الأعلى» الهَوِيّ من الليل». [التبيان:١٥١].

٤- رمضان ليس اسماً من أسماء الله:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن طائفة كرهت أن تقول: صمت رمضان، بل شهر رمضان، واعتلوا برواية منحولة إلى ابن عباس «رمضان اسم من أسماء الله» [طرق هذا الحديث ضعيفة كما نص عليه محقق البدائع (٢/ ٥٥٣) وقد عزاه إلى ابن عدي في الكامل، والبيهقي في الكبرى]». [بدائع الفوائد: ٢/ ٥٥٣].

٥- لا يجوز إطلاق اسم الماكر والمخادع والفاتن على الله:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن: «بعض المتأخرين أخطؤوا في اشتقاقهم من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، فأدخلوا في أسمائه الحسنى: الماكر، والخادع، والفاتن، والمضلّ، والكاتب، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه:١٣١]، ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة:٢١] وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلقْ على نفسه هذه الأسماءَ، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه سبحانه إنّما أخبر عن نفسه بأفعال مختصّة مقيّدة، فلا يجوزُ أن ينسبَ إليه مسمّى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أنّ مسمّى هذه الأسماءِ منقسمٌ إلى ما يمدح عليه المسمّى به، وإلى ما يذمّ. فيحسن في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنعُ إطلاقه عليه سبحانه في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماءِ الحسنى التي يسمّى بها سبحانه؛ كما قال تعالى، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف:١٨٠] وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سمّي بهذه الأسماءِ، وقيل له: هذه مدحتك وثناءٌ عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضلّ اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماءِ عليه ويعدّها مدحة، ولله المثلُ الأعلى سبحانه وتعالى عمّا يقولُ الجاهلون به علواً كبيراً.

السادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعلَ من أسمائه اللاعن، والجائي والآتي، والذاهب والتارك، والمقاتل والصادق، والمنزل والنازل، والمدمدم والمدمِّر، وأضعاف أضعاف ذلك، فيشتقّ له اسماً من كلِّ فعلٍ أخبر به عن نفسه، وإلاّ تناقض تناقضاً بيِّناً، ولا أحد من العقلاءِ طرد ذلك، فعلم بطلان قوله، والحمد لله رب العالمين». [طريق الهجرتين:٥٩٦-٥٩٧].

٦- الصانــع:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن «لفظ الصانع لم يرد في أسماء الله تعالى، ولا يمكن ورودها فإن الصانع من صنع شيئاً، عدلاً كان أو ظلماً، سفهاً أو حكمة،

جائزاً أو غير جائز، ومما انقسم مسماه إلى مدح وذم، لم يجئ اسمه المطلق في الأسماء الحسنى، كالفاعل والعامل والصانع والمريد والمتكلم، لانقسام معاني هذه الأسماء إلى محمود ومذموم، بخلاف العالم والقادر والحي والسميع والبصير.

وقد سمَّى النبي ﷺ العبدَ صانعاً، قال البخاري: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا أبو مالك، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ : «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»، وقد أطلق سبحانه على فعله اسم الصنع، فقال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] وهو منصوب على المصدر، لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] يدل على الصنعة، وقيل: هو نصب على المفعولية، أي: انظروا صُنْعَ الله، فعلى الأول يكون «صنع الله» مصدراً بمعنى الفعل، وعلى الثاني يكون بمعنى المصنوع المفعول، فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤية عليه». [شفاء العليل: ١/ ٣٩٥].

المبحث السابع
القواعد الضابطة في باب أسماء الله وصفاته

وضع ابن القيم رحمه الله تعالى عشرين قاعدة تحمي مريد الحق من الضلال والانحراف في باب أسماء الله وصفاته إذا هو هدي إلى فقهها حق الفقه، وهدي إلى العمل بها على نحو فقهه لها، وقد دعا ابن القيم رحمه الله تعالى شراح أسماء الله الحسنى إلى الاستضاءة بضوئها، وإلا فعليهم الابتعاد عن هذه المهمة العظيمة، فليس كل إنسان يقدر على ما يريد، وفي ذلك يقول: «هذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثمَّ اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً ولساناً قائلاً ومحلاً قابلاً؛ وإلاَّ فالسكوت أولى بك، فجنابُ الربوبية أجلُّ وأعزُّ مما يخطر بالبال أو يعبِّر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وعسى الله أن يُعين بفضله على تعليق «شرح الأسماء الحسنى»، مراعياً فيه أحكام هذه القواعد بريئاً من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانُّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم». [بدائع الفوائد: ١/ ٢٩٩-٢٠٠، طبعة مجمع الفقه].

وسأورد بحول الله وقوته هذه القواعد العشرين التي أوردها ابن القيم، وأضيف إلى كل قاعدة ما أضافه إليها في مواضع أخرى إذا كان فيه مزيد فائدة، ثم أضيف إلى هذه القواعد ما رأيته في كتبه مما يصلح أن يكون قاعدة في هذا الباب، والله المستعان.

القاعدة الأولى
ما يدخل في باب الأخبار أوسع مما يدخل في باب الأسماء والصفات

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «ما يدخل في باب الإخبار عنه – تعالى – أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإن هذا يُخبر به عنه، ولا يَدْخل في أسمائه الحسنى وصفاته العُلى».

القاعدة الثانية
الصفات المنقسمة إلى كمال ونقص لا تدخل بمطلقها في أسمائه

«الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص؛ لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يُطْلَقُ عليها منها كمالها، وهذا كالمريد، والفاعلِ، والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غَلِطَ من سمّاه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعّالُ لما يريدُ».

فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكملَه فعلاً وخبراً.

القاعدة الثالثة
لا يلزم من الإخبار عن الله بالفعل مقيداً أن يشتق له اسم مطلق

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يُشتَق له منه اسم مطلق، كما غَلِطَ فيه بعضُ المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: «المُضِل الفاتن الماكر» – تعالى الله عن قوله – فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه – سبحانه – منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم».

القاعدة الرابعة
أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف

«أسماؤه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العَلَمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي عَلَميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فَنَافَتْها العَلَمية المختصة، بخلاف أوصافه تعالى».

القاعدة الخامسة
الاسم من أسماء الله له دلالات

«الاسم من أسمائه له دلالات؛ دلالة على الذات والصفة بالمطابقة؛ ودلالة على أحدهما بالتضمُّن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم».

وتوسع ابن القيم رحمه الله تعالى في تقرير هذه القاعدة في موضع آخر، فقال: «الاسم من أسمائه – تبارك وتعالى – كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدَها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ويتفاوتُ الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أن الفعل الاختياري لازمٌ للحياة، وأن السمعَ والبصرَ لازمٌ للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة – أثبتَ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزومَ ذلك، ولا عرفَ حقيقةَ الحياة ولوازمَها، وكذلك سائر صفاته.

فإنّ اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمةَ الله ولوازِمها.

وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق، بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «وأنْتَ الظّاهرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ» [مسلم في صحيحه] بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فَوْقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصحُ أن يكونَ «الظاهر» هو من له فوقيةُ القدر فقط، كما يقال: الذهبُ فوقَ الفضة، والجوهرُ فوقَ الزجاج، لأنّ هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ: «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسمُ «الحكيم» من لوازمه ثبوتُ الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضْعُه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى». [مدارج السالكين: ١/ ٥٤].

القاعدة السادسة

أسماء الله الحسنى لها اعتبار من حيث الذات وآخر من حيث الصفات

أسماؤه الحسنى لها اعتباران: اعتبارٌ من حيث الذات، واعتبارٌ من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة وبالاعتبار الثاني متباينة.

القاعدة السابعة

أسماء الله وصفاته توقيفية بخلاف الإخبار عن الله

ما يُطْلَق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفيٌّ، وما يُطلق عليه من الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيّاً، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فهذا فَصْل الخطاب في مسألة أسمائه؛ هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع.

القاعدة الثامنة

الاسم إذا أطلق على الله جاز أن يشتق منه المصدر والفعل

الاسم إذا أُطْلِق على الله؛ جاز أن يُشْتق منه المصدر والفعل، فيُخْبر به عنه فعلاً ومصدراً؛ نحو: السميع البصير القدير، يطلق عليه منه اسم السمع والبصر والقدرة، ويُخْبر عنه بالأفعال، من ذلك نحو: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة:١]. ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات:٢٣] هذا إن كان الفعلُ متعدياً، فإن كان لازماً لم يُخْبر عنه به، نحو: الحي، بل يُطْلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حَيِيَ.

القاعدة التاسعة

فعال الرب عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله

أفعال الربِّ – تعالى – صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالربُّ – تعالى – فِعَاله عن كماله، والمخلوق كمالُه عن فِعَاله، فاشْتُقَّت له الأسماء بعد أن كَمُلَ بالفعل، فالربُّ – تعالى – لم يزل كاملاً، فحصلت أفعالُه عن كماله؛ لأنه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كمالِهِ كَمُل فَفَعَل، والمخلوق فَعَل فكَمُلَ الكمال اللائق به.

القاعدة العاشرة
العلم بالأسماء الحسنى أصل للعلم بكل معلوم

إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكلِّ معلوم، فإن المعلومات سواه: إما أن تكون خلقاً له – تعالى – أو أمراً، إما عِلْم بما كوَّنه، أو عِلْم بما شَرَعَه، ومصدرُ الخلقِ والأمرِ عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كلُّه مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حَسَن، لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كلُّه مصلحَة وحِكْمة ورحمة ولطفٌ وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العَدْل والحكمة، والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خَلْقِه ولا عَبَث، ولم يخلق خلْقَه باطلاً ولا سدًى ولا عَبَثاً، وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجودُ من سِواه تابعٌ لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم به – تعالى – أصل للعمل بكلِّ ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصلٌ لسائر العلوم.

فمن أحصى أسماءَه كما ينبغي للمخلوق أحْصَى جميعَ العلوم؛ إذ إحصاءُ أسمائه أصل لإحصاء كلِّ معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها، وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى؛ ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً؛ لأن الخللَ الواقع فيما يأمر به العبدُ أو يفعله: إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب – تعالى – فهو العليم الحكيم فلا يلحق فعله ولا أمره خللٌ ولا تفاوت ولا تناقض.

القاعدة الحادية عشرة
أسماء الله كلها حسنى

أسماء الله كلُّها حُسْنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، قد تقدَّم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو: الخالق والرزَّاق والمحيي والمميت، وهذا يدلُّ على

أن أفعاله كلَّها خيرات محضة لا شرَّ فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشْتُق له منه اسمٌ، ولم تكن أسماؤه كلُّها حسنى، وهذا باطل، فالشرُّ ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشرُّ ليس إليه، لا يُضَاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرقٌ بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفيَ على كثير من المتكلِّمين، وزلَّت فيه أقدام، وضَلَّت فيه أفهام، وهدى الله أهلَ الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

القاعدة الثانية عشرة
مراتب إحصاء أسماء الله تعالى

مراتب إحصاء أسمائه – تبارك وتعالى – التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قُطْب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وهو مرتبتان: **أحدهما**: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلبٍ ومسألة.

فلا يُثْنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، ولذلك لا يُسئل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني!! بل يُسئل في كلِّ مطلوب باسمٍ يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسِّلاً إليه بذلك الاسم، ومن

تأمل أدعية الرُّسُل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم – صلوات الله وسلامه عليهم – وجدَها مطابقةً لهذا.

وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله؛ فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي مُنْتَزَعة من قول الفلاسفة بالتشبُّه بالإله على قَدْر الطاقة، وأحسنُ منها عبارة أبي الحكم بن بَرَّجان، وهي: التعبد، وأحسن منها: العبارةُ المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال، فمراتبها أربعة: أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة، وهي: التشبُّه. وأحسن منها عبارة من قال: التخلُّق، وأحسن منها عبارة من قال: التعبُّد، وأحسن من الجميع: الدعاء، وهي لفظ القرآن.

القاعدة الثالثة عشرة
حقيقة الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد

اختلف النظار في الأسماء التي تُطْلَق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها.

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد، مَجاز في الرب، وهذا قول غُلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال وأشدها فساداً.

الثاني: مقابله وهو: أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس النَّاشِئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما.

وهذا قول الأكثرين، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرَّب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به، وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال، وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن

الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب،ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سِفْرين أو أكثر.

القاعدة الرابعة عشرة
الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات

أنَّ الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث هو، مع قَطْع النظر عن تقييده بالرَّبِّ أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً إلى الرب مختصّاً به.

الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مُقَيداً به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته؛ كان ثابتاً للرب والعبد، وللربِّ منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المُبْصَرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها: حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها.

فما لزم هذه الأسماء لِذَاتها؛ فإثباته للرب - تعالى - لا محذورَ فيه بوجهٍ، بل تثبتُ له على وجهٍ لا يماثل فيه خلقَه ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألْحد في أسمائه وجَحَدَ صفات كماله، ومن أثبته له على وجهٍ يماثل فيه خلْقَه فقد شبَّهَه بخلقه،ومن شبَّه اللهَ بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجهٍ لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليقُ بجلاله وعظمته؛ فقد بَرِئ من فَرْث التشبيه ودَمِ التعطيل، وهذا طريق أهل السنّة.

وما لزم الصفةَ لإضافتها إلى العبدِ وجبَ نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسِّنَةِ والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركةِ نفسه

في جلبِ ما ينتفع به ودفع ما يتضرَّر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عالٍ عليه، وكونه محمولاً به مفتقراً إليه محاطاً به، كلُّ هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه – تعالى – بها؛ فإنه لا يثبت للمخلوق بوجهٍ، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خُبْراً وعَقَلْتَها كما ينبغي خَلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وَفَّيت هذا المقام حقَّه من التصور أثبتَّ لله الأسماء الحسنى والصفات العُلَى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيتَ عنها خصائصَ المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبَّر هذا الموضع واجعله جُنَّتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

القاعدة الخامسة عشرة
الصفة متى قامت بموصوف لزمها أربعة أمور

إن الصفة متى قامت بموصوفٍ لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان.

فاللفظيان: ثُبُوتي وسَلْبي، فالثبوتي: أن يُشتق لموصوف منها اسم، والسَّلْبي: أن يمتنع الاشتقاق لغيره.

والمعنويان: ثبوتي وسلبي، فالثبوتي: أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه، والسلبي: أنه لا يعود حكمُها إلى غيره، ولا يكون خَبَراً عنه.

وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات، فلنذكر من ذلك مثالاً واحداً وهي: صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحلٍّ كان هو المتكلِّم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى

وأخبر وخاطب وتكلم وكلَّم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره وعلى عدم قيامها به، وهذا هو أصل السنّة الذي ردُّوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طَرْداً وعَكْساً.

القاعدة السادسة عشرة
أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر

الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تُحَد بعدد، فإن لله – تعالى – أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، كما في الحديث الصحيح: «أسْأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ، أو أنزَلْتَهُ في كِتَابِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ» فجعل أسماءَه ثلاثة أقسام:

قِسْم: سَمَّى به نفسَه، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم: أنزل به كتابه فتعرَّفَ به إلى عباده.

وقسم: استأثَرَ به في علمِ غيبه، فلم يُطْلِع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: «استأثرْتَ بِهِ» أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمِّي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتحُ عليَّ من محَامِدِه بما لا أُحْسِنُه الآن» [عزاه محققه إلى البخاري ومسلم] وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى. ومنه قوله ﷺ : «لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسِك» [عزاه محقق الكتاب لمسلم]. وأما قوله ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسْماً مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجنةَ» فالكلامُ جملة واحدة. وقوله: «مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجنةَ» صفةٌ لا خبر مستقبل.

والمعنى: له أسماء متعددة، مِن شأنها أن من أحصاها دخل الجنة. وهذا لا ينفي أن يكون له تعالى أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوكٍ قد أعدهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

القاعدة السابعة عشرة
أسماء الله التي تطلق مفردة ومقترنة والتي لا تطلق مفردة

أسماؤه – تعالى – منها ما يُطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حكيم، يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كلُّ اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقروناً بمقابله؛ كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يُفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرونٌ بالمعطي والنافع والعفوِّ، فهو المعطي المانع، الضار النافع، العفوُّ المنتقم، المعزُّ المذلُّ؛ لأن الكمال في اقتران كلِّ اسم من هذه بما يُقابله؛ لأنه يُراد به: أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم: عطاءً ومنعاً، ونفعاً وضرّاً، وعَفْواً وانتقاماً. وأما أن يُثْنى عليه بمجرَّد المنع والانتقام والإضرار؛ فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فَصْل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه.

فلو قلت: يا مُذِل يا ضار يا مانع، أو أخبرتَ بذلك؛ لم تكن مُثْنياً عليه ولا حامداً له حتى تذكر مقابله.

وقال ابن القيم في موضع آخر في هذه المسألة: «من أسمائه الأسماء المزدوجة كالمعز المذل، والخافض الرافع، والقابض الباسط، والمعطي المانع، ومن صفاته

الصفات المتقابلة كالرضا والسخط، والحب والبغض، والعفو والانتقام، وهذه صفات كمال، وإلا لم يتصف بها، ولم يتسمَّ بأسمائها، وإذا كانت صفات كمال فإما أن يعطل مقتضاها وموجبها، وذلك يستلزم تعطيلها في أنفسها، وإما أن تتعلق بغير محلها الذي يليق بأحكامها، وذلك نقص وعيب يتعالى عنه، فتعين تعلقها بمحالها التي تليق بها، وهذا وحده كافٍ في الجواب لمن كان له تفقه في باب الأسماء والصفات، ولا عبرة بغيره». [شفاء العليل: ٢/ ٦٠٩].

القاعدة الثامنة عشرة
الصفات إما صفات كمال أو نقص أو لا تقتضي واحداً منهما

الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً، وإن كانت القِسْمة التقديرية تقتضي قسماً رابعاً وهو: ما يكون كمالاً ونقصاً باعتبارين، والربُّ – تعالى – مُنَزَّه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول، فصفاته كلها صفات كمالٍ مَحْض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدِّي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليسَ تفسيراً بمرادفٍ مَحْض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا؛ فله سبحانه من كلِّ صفةِ كمالٍ أحسنُ اسمٍ وأكمله وأتمه معنىً، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيبٍ أو نقص، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون: العاقل الفقيه، والسميع البصير، دون: السامع والباصر والناظر.

ومن صفات الإحسان: البَرُّ الرحيم الودود، دون: الرفيق والشفوق ونحوهما، وكذلك: العَلِي العظيم، دون: الرفيع الشريف. وكذلك: الكريم، دون: السخي، والخالق البارئ المصوِّر، دون: الفاعل الصانع المُشَكِّل، والغفور العفوُّ،

دون: الصفوح الساتر. وكذلك سائر أسمائه تعالى، يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيرُه مقامَه، فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمَّى به نفسَه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، إلى ما وصفه به المبطلون والمعطِّلون.

القاعدة التاسعة عشرة
من أسماء الله الحسنى ما يكون دالاً على عدة صفات

من أسمائه الحسنى ما يكون دالاً على عِدَّة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً جميعها تناولَ الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كاسْمِه: العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابنُ عباس – فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»: «الصمد: السيد الذي قد كَمُل في سؤدده، والشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُل في عَظَمْته، والحليم الذي قد كَمُلَ في حلمه، والعليم الذي قد كَمُلَ في عِلْمه، والحكيم الذي قد كَمُلَ في حِكْمته، وهو الذي قد كَمُلَ في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه وتعالى. هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفواً أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار» هذا لفظه.

وهذا مما خَفِيَ على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحُسْنى، ففسَّر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يُحِطْ بهذا علماً بخَسَ الاسمَ الأعظم حقَّه وهضمَه معناه، فتدبَّرْهُ».

القاعدة العشرون
نثبت لله ما أوجبه على نفسه ونحرم عليه ما حرم على نفسه

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن فرقة أوجبت على الله شريعة بعقولها، وحرمت عليه، وأوجبت ما لم يحرمه على نفسه، ولم يوجبه على نفسه.

وأن فرقة ثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتنزه عنه لمنافاة حكمته وحمده وكماله.

والفرقة الثالثة هي الفرقة الوسط التي أثبتت له ما أثبته لنفسه من الإيجاب والتحريم الذي هو مقتضى أسمائه وصفاته، كتحريمه الظلم على نفسه، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩] ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] . [مفتاح دار السعادة باختصار: ٢/ ٥٤٤].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع آخر: «أن الله سبحانه أخبر في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلَّق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكَّد النبي ﷺ هذا المعنى بما يوضحه، ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح: «لما قَضَى اللهُ الخلْقَ كتبَ بيدِهِ على نفسِه في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ فوقَ العَرْشِ: إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وفي لفظٍ: «سَبَقَتْ غَضَبِي»، فتأمل كيف أكَّدَ هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة وصفة اليد ومحلِّ الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقرّ الكتاب، وأنه عندَه فوقَ العرش، فهذا إيجابٌ مؤكَّد بأنواع من التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسِه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، فهذا حقٌّ أحقَّه على نفسِه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ «الحق» ولفظ «على».

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «أتَدْرِي ما حقُّ الله على عبادِه»؟ قلتُ: اللهُ ورسلُه أعلمُ، قال: «حقُّه عليهم أنْ يعبدُوه ولا يُشْرِكوا به شيئاً، أتَدْرِي ما حَقُّ العِبادِ عَلَى الله إذا فَعَلُوا ذلِكَ»؟ قلت: اللهُ ورسولُه أعْلَم، قال: «حقُّهُمْ عَلَيْهِ أنْ لا يُعَذِّبهم بالنارِ»، ومنه قوله ﷺ في غير حديث: «مَنْ فَعَل كذا وكذا كان حقّاً على الله أن يفعل به كذا وكذا» في الوعد والوعيد، فهذا الحقُّ هو الذي أحقَّه على نفسِه.

ومنه الحديثُ الذي في «المسند» من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ في قولِ الماشي إلى الصلاة: «أسألكَ بحقِّ ممشايَ هذا، وبحقِّ السَّائلينَ عليكَ»، فهذا حقٌّ للسائلين عليه هو أحقَّه على نفسِه، لا أنهم هم أوجبوه ولا أحقُّوه، بل أحقَّ على نفسه أن يجيبَ من سأله، كما أحقَّ على نفسِه في حديث معاذ أن لا يعذِّب من عبدَه، فحقُّ السائلين عليه أن يجيبَهم، وحقُّ العابدين له أن يثيبهم، والحقَّان هو الذي أحقَّهما وأوجبهما لا السائلون ولا العابدون، فإنه سبحانه:

مَا للعبادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلاَّ وَلا سَعْي لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذِّبوا فَبعدْلِهِ أوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكريمُ الوَاسِعُ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذي أحقَّه على نفسه وأوجبه.

ونظير هذا ما أخبر به سبحانه من قسمه ليفعلنه نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم:٦٨] وقوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣] وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤-٨٥] وقوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:١٩٥] وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] إلى أمثال ذلك مما أخبر أنه يفعله إخباراً مؤكَّداً بالقَسَم.

والقسمُ في مثل هذا يقتضي الحضَّ والمنعَ بخلاف القَسَم على ما فعله تعالى مثل قوله: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣]، والقسم على

ثبوت ما ينكره المكذبون، فإنه توكيد للخبر، وهو من باب القسم المتضمن للتصديق، ولهذا تقول الفقهاء: اليمينُ ما اقتضى حضّاً أو منعاً أو تصديقاً أو تكذيباً، فالقسم الذي يقتضي الحضَّ والمنعَ هو من باب الطلب؛ لأن الحضَّ والمنع طلبٌ.

ومن هذا ما أخبرَ به أنه لا بدَّ أن يفعله لسبق كلماته به؛ كقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٩]، وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود:١١٠]، فهذا إخبار عما يفعله ويتركه أنه لسَبْقِ كلمته به فلا يتغير.

ومن هذا تحريمه سبحانه ما حرَّمه على نفسِه، كقوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله: «يا عِبَادي إني حرَّمتُ الظلمَ على نَفْسي وجعلتُه بينكُمْ مُحَرَّماً» [عزاه محقق الكتاب لمسلم عن أبي ذر]، فهذا التحريم نظير ذلك الإيجاب، ولا يُلْتفت إلى ما قيل في ذلك من التأويلات الباطلة، الذي يَجْزم الناظر في سِيَاق هذه المواضع ومقصودها بِبُعْد المراد منها؛ كقول بعضهم: إن معنى الإيجاب والكتابة في ذلك كلِّه هو إخباره به، ومعنى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤]، أخبرَ بها عن نفسه، وقوله: «حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي» أي: أخبرتُ أنه لا يكون، ونحو ذلك مما يتيقن المرءُ أنه ليس هو المراد بالتحريم، بل الإخبار هاهنا هو الإخبار بتحريمه وإيجابه على نفسه، فمتعلَّق الخبر هو التحريم والإيجاب، ولا يجوز إلغاءُ متعلَّق الخبر، فإنه يتضمَّن إبطال الخبر. ولهذا إذا قال القائل: «أوجبتُ على نفسي صوماً»، فإن متعلَّقه وجوب الصومِ على نفسِه، فإذا قيل: إن معناه: «أخبرتُ بأني أصوم» كان ذلك إلغاءً وإبطالاً لمقصودِ الخبر، فتأمله.

وإذا كان معقولاً من الإنسان أنه يوجب على نفسِه ويحرِّم، ويأمرها وينهاها، مع كونه تحتَ أمرِ غيرِه ونهيه، فالآمر الناهي الذي ليس فوقَه آمر ولا نَاهٍ؛ كيف يمتنع في حقِّه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه، وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه به، وتحريمه على نفسه يستلزم بُغْضَه لما حرَّمه، وكراهته له، وإرادة أن لا يفعله، فإن محبَّتَه للفعل تقتضي وقوعَه منه، وكَرَاهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه، وهذا غير ما يحبه - سبحانه - من أفعال عباده ويكرهه، فإن محبَّة ذلك منهم لا تستلزم وقوعَه، وكَرَاهته منهم لا تمنع وقوعه، ففرقٌ بينَ فعله هو سبحانه، وبين فِعْل عبادِه الذي هو مفعوله مع كراهته وبغضه له، ويتخلَّف مع محبته له ورضاه به، بخلاف فعله هو سبحانه، فهذا نوع وذاك نوع، فتدبَر هذا الموضع الذي هو مَزَلَّة أقدام الأولين والآخرين إلا من عصمه الله وهداه إلى صراط مستقيم. وتأمل أين تكون محبته وكراهته موجبة لوجود الفعل ومانعةً من وقوعه، وأين تكون المحبة منه والكراهة لا توجب وجود الفعل ولا تمنع وقوعه».

[بدائع الفوائد: ٢/ ٦٤٢-٦٤٣].

القاعدة الحادية والعشرون
الحكمة من تقديم بعض أسمائه على بعض

بيّن العلاّمة ابن القيم رحمه الله أن العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، ولكن التقديم والتأخير مع ذلك لا بدَّ له من حكمة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وسأقتصر من كلامه على ما يتعلق بأسماء الله تبارك وتعالى.

فقد ذكر أنه ورد في كلام الله عز وجل «سميع عليم، ولم يجئ عليم سميع، وكذلك عزيز حكيم، وغفور رحيم، وفي موضع واحد من القرآن قدم الرحيم على الغفور، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة، لأنه كلام الحكيم الخبير».

[بدائع الفوائد: ١/ ٥٧].

وبعد أن بيّن الأسباب التي تتقدم المعاني بعضها على بعض قال: «قدم العزيز على الحكيم، لأنه عزّ، فلما عزَّ حكم». [بدائع الفوائد: ١/ ٥٩].

وبيّن رحمه الله تعالى أن تقديم السميع على البصير، وسميع على بصير تقديم بسبب الرتبة، فرتبة السميع مقدمة على البصير، وسميع على بصير. [بدائع الفوائد: ١/ ٥٩].

«وأما تقديم الغفور على الرحيم، فهو أولى بالطبع، لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تُطلب قبل الغنيمة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعمرو ابن العاص: «أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك، وأزعب لك زعبة من المال» [عزاه محققه إلى أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي]. فهذا من الترتيب البديع، بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ:٢] فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨] وكقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]». [بدائع الفوائد:١/ ٦٠].

القاعدة الثانية والعشرون
اقتران أحد أسمائه أو صفاته باسم آخر أو صفة أخرى يفيد كمالاً زائداً

أفاد ابن القيم رحمه الله تعالى أن بعض أسمائه أو صفاته إذا اقترن باسم آخر أو صفة أخرى، أفاد معنى زائداً عن الاسمين أو الصفتين، وفي ذلك يقول: «إن اقتران أحد اسميه أو صفتيه باسم آخر أو صفة أخرى له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسط الملك بين الجملتين، فجعله محفوفاً بحمدٍ قبله وحمدٍ بعده، ثم عقّب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبره، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها، فتضمّنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه، على أكمل الوجوه، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ ﴾ [سبأ:٢] ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه، وهما الرحمة والمغفرة، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم، ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢] فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته، وحكمه ومغفرته.

وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧]، ومن الثاني ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء:١٢] فما قُرِن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم.

وحملة العرش أربعة، اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد عل حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم، وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر:٧]». [بدائع الفوائد: ١/ ٧٣].

القاعدة الثالثة والعشرون
ختم الآية بما يناسب موضوعها، وختم الدعاء بما يناسب المطلوب

نبّه ابن القيم رحمه الله تعالى إلى أن النصوص القرآنية تختم بالأسماء التي تقتضي المعنى الذي تتحدث الآية عنه، وعلى الداعي والمتحدث أن يأتي من أسماء الله وصفاته بما يقتضي ذلك، فلا بدَّ من التناسب بين الموضوع والاسم الذي يورده المتحدث أو الداعي، يقول ابن القيم عن اسم الله «المجيد» الذي نختم به الصلاة على النبي ﷺ : «تأمل كيف جاء هذا الاسم «المجيد» بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ ، لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه.

ومنه: الحديث الذي في المسند والترمذي: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»، ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصّره الله تعالى». [بدائع الفوائد: ١/ ١٤٤].

القاعدة الرابعة والعشرون
توسط حرف العطف بين أسماء الله أحياناً وتركه غالباً

بيّن ابن القيم أن بعض أسماء الله يتوسط حرف العطف بينها عند ورودها في كتاب الله، وهذا قليل، والأكثر أنها ترد بلا عطف، وفي ذلك يقول: «الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد فتارة يتوسط بينها حرف العطف لتغايرها في نفسها، وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها، وتارة لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة، وتارة يتوسط العاطف بين بعضها ويحذف مع بعض بحسب هذين المقامين.

فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد حسن إسقاط حرف العطف، وإن أُريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها حسن إدخال حرف العطف، فمثال الأول: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢] وقوله: ﴿مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ﴾ [التحريم:٥].

ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:١-٣] فأتى بالواو في الوصفين الأولين، وحذفها في الوصفين الأخيرين، لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه.

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه، وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وحَسَّنَ العطف هاهنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣] وترك في قوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [الحشر:٢٣]، وقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر:٢٤]، وأما: ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر:٣] فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب، فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجمعان له بخلاف الأول والآخر، فإن الأولية لا تجامع الآخرية، ولهذا فسرها النبي ﷺ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» [عزاه محقق الكتاب لمسلم والترمذي وأبي داود] فأوليته أزليته، وآخريته أبديته.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: والظاهر والباطن، فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه، فيجتمع في حقه الظهور والبطون، والنبي ﷺ فسر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة.

قلت: هذا سؤال حسن، والذي حسّن دخول الواو هاهنا أن هذه الصفات متقابلة متضادة وقد عطف الثاني منهما على الأول للمقابلة التي بينهما والصفتان الأخريان كالأوليين في المقابلة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الأخريين». [بدائع الفوائد: ٣/ ٤٥].

وبيّن ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع آخر أن: «القاعدة أن الشيء لا يُعْطَف على نفسه، لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل،لأنك إذا قلت: قام زيد

وعمرو، فهي بمعنى: قام زيد وقام عمرو، والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم كذباً وميناً، فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني، وإن خفي عنك.

ولهذا يبعد جداً أن يجيء في كلامهم جاءني عمر وأبو حفص ورضي الله عن أبي بكر وعتيقه، فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيّراً في العطف وتركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول، فعلى الوجه الأول تقول: زيد فقيه شاعر كاتب، وعلى الثاني فقيه وشاعر وكاتب، كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر، وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول، لأنه هو هو من حيث اتحد الحامل للصفات.

وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن الكريم بغير عطف، نحو: السميع العليم، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، الملك القدوس السلام إلى آخرها، وجاءت معطوفة في موضعين: أحدهما في أربعة أسماء وهي: ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣]. والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ ﴾ [الأعلى:٢-٤].

ونظيره: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [الزخرف:١٠-١٢] فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول.

ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك: ﴿ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾

[الحشر:٢٤]، وأما تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متّفقة المعاني متطابقة في حق الرب تعالى، لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن.

ولا يناقض بعضها بعضاً في حقه، فكان دخول الواو صرفاً لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال واحتمال الأضداد، لأن الشيء لا يكون ظاهراً باطناً من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف هاهنا أحسن من تركه لهذه الحكمة، هذا جواب السهيلي.

وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معانٍ متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذاناً بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها، ووجه آخر وهو أحسن منها، وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمّناً لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل مثلاً أربع صفات هي: عالِم وجواد وشجاع وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقرّ بِهِ ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت: زيد عالم وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد، أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدّرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع، أي: وهو مع ذلك شجاع وغني، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار، وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره، لأن الأولية والآخرية من المتضايفات.

وكذلك الظاهر والباطن، إذا قيل: هو ظاهر ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأوليّة هو

الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول وهو الآخر، وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها.

والذي يوضح لك ذلك أنه إذا كان للبلد مثلاً قاض وخطيب وأمير فاجتمعت في رجل، حَسُنَ أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير، وكان للعطف هنا مزيّة ليست للنعت المجرد، فعطف الصفات هاهنا أحسن قطعاً لوهم متوهّم أن الخطيب غيره وأن الأمير غيره، وأما قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ [غافر:٣] فعطف في الاسمين الأولين دون الأخيرين». [بدائع الفوائد: ١/ ١٦٩-١٧١، وراجع أيضاً بدائع الفوائد: ٣/ ٩١٤، طبعة مجمع الفقه].

القاعدة الخامسة والعشرون
لا يجوز إثبات خصائص المخلوقين لرب العالمين

كثير من نفات الصفات التي أثبتها الحق لنفسه أو أثبتها له رسوله يتبادر إلى قلوبهم عندما تطرق أسماء الله وصفاته مسامعهم المعاني القذرة السيئة، فأول ما يتبادر إلى نفوسهم أن هذه الصفات هي صفات المخلوقين، ولذلك فإنهم يبادرون إلى نفيها زاعمين أنهم يريدون تنزيه الباري تبارك وتعالى عن مشابهة المخلوقين، وقد بيّن العلاّمة ابن القيم رحمه الله أن خصائص المخلوقين لا يجوز ابتداءً إثباتها لرب العالمين، وبهذا نطرد هذا الخاطر السيئ الذي ضل به كثير من عباد الله، يقول في ذلك رحمه الله تعالى:

«خصائص المخلوقين لا يجوز إثباتها لرب العالمين، بل الصفة المضافة إلى الله لا يلحقه فيها شيء من خصائصهم فإثباتها له كذلك لا يحتاج معه إلى تأويل، فإن الله ليس كمثله شيء.

وقد تقدم أن خصائص المخلوقين غير داخلة في الاسم العام فضلاً عن دخولها في الاسم الخاص المضاف إلى الرب تعالى، وأنها لا يدل اللفظ عليها بوضعه حتى يكون نفيها عن الرب تعالى صرفاً للفظ عن حقيقته.

ومن اغتفر دخولها في الاسم المضاف إلى الرب، ثم توسّل بذلك إلى نفي الصفة عنه فقد جمع بين التشبيه والتعطيل، وأما من لم يدخلها في مسمى اللفظ الخاص، ولا أثبتها للموصوف فقوله محض التنزيه، وإثبات ما أثبت الله تعالى لنفسه، فتأمل هذه النكتة، ولتكن منك على ذكر في باب الأسماء والصفات، فإنها تزيل عنك الاضطراب والشبهة، والله تعالى الموفق للصواب». [بدائع الفوائد: ٢/ ٧٢].

القاعدة السادسة والعشرون
أسماء الله كلها حسنى ولو كانت مجردة عن المعاني لم تكن حسنى

قال ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً هذه المسألة: «أسماء الرب تعالى كلُّها أسماء مدح، ولو كانت ألفاظاً مجردة لا معاني لها، لم تدل على المدح، وقد وصفها الله سبحانه بأنها حسنى كلُّها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨] فهي لم تكن حسنى لمجرد اللفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال.

ولهذا لما سمع بعضُ العرب قارئاً يقرأ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٣٨] «والله غَفُورٌ رَحِيمٌ» قال: ليس هذا كلام الله تعالى، فقال القارئ: أَتُكَذِّبُ بكلام الله تعالى؟ فقال: لا ولكن ليس هذا بكلام الله، فعاد إلى حفظه وقرأ (والله عَزيزٌ حَكِيمٌ) فَقالَ الأعرابي: صدقت عزَّ، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع.

ولهذا إذا ختمت آية الرحمة باسم عذاب، أو بالعكس، ظهر تنافر الكلام، وعدمُ انتظامه». [جلاء الأفهام: ١٧٣-١٧٤].

وقال في موضع آخر: «لو كانت ألفاظاً لا معاني لها فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالةً على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس. فيقال: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقمُ، واللهم أعطني، فإنك أنت الضارُ المانعُ، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠] ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يخبرَ عنها بمصادرها ويوصف بها، لكنّ الله أخبرَ عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨] فعلم أن «القويَّ» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يُسَمَّ قوياً ولا عزيزاً، وكذلك قوله: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٦] ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود:١٤] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَنامُ، ولا يَنْبَغي لَهُ أنْ يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ اللَّيل، حِجابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إليهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [مسلم في صحيحه] فأثبتَ المصدر الذي اشتُقَّ منه اسمه «البصير».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «الحمدُ لله الَّذي وَسِع سَمْعُهُ الأَصْوات» [علقه البخاري في صحيحه، ووصله أحمد والنسائي].

وفي الصحيح حديث الاستخارة: «اللَّهُمَّ إني أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ» [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري] فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف:١٤٤] فهو متكلمٌ بكلام.

وهو العظيمُ الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «يقول الله تعالى: العَظَمَةُ إزاري، والكبرياءُ رِدَائي» [عزاه محقق الكتاب لمسلم].

وهو الحكيمُ الذي له الحكم: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلفَ بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته: انعقدت يمينُه، وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتُقت منها أسماؤه.

وأيضاً: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معانٍ وصفات لم يسغ أنْ يُخْبَرَ عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد، فإنَّ ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات معانٍ وأوصافٍ لكانت جامدةً كالأعلام المحضة، التي لم تُوضعْ لمسماها باعتبار معنًى قام به، فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبَهْت بَيِّن، فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة».

[مدارج السالكين: ١/ ٥١].

القاعدة السابعة والعشرون
أسماء الله مشتقة من أوصافه وأفعاله لا من مخلوقاته

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «الربُّ تعالى يشتق له من أوصافه ومن أفعاله أسماء، ولا يشتق له من مخلوقاته، فكل اسم من أسمائه فهو مشتق من صفة من صفاته، أو فعل قائم به، فلو كان يشتق له اسم باعتبار المخلوق المنفصل لَسُمِّيَ: متكوناً ومتحركاً وساكناً وطويلاً وأبيض وغير ذلك؛ لأنه خالق هذه الصفات، فلما لم يطلق عليه اسم من ذلك مع أنه خالقه، عُلم أنها تشتق أسماؤه من أفعاله وأوصافه القائمة به، وهو سبحانه لا يتصف بما هو مخلوق منفصل عنه، ولا يتسمى باسمه.

ولهذا كان قول من قال: إنه يسمى متكلماً بكلام منفصل عنه خلقه في غيره، ومريداً بإرادة منفصلة عنه، وعادلاً بعدل مخلوق منفصل هو المخلوق، وخالقاً بخلق منفصل عنه هو المخلوق قولاً باطلاً مخالفاً للعقل والنقل واللغة مع تناقضه في نفسه؛ فإنه إن اشتق له اسم باعتبار مخلوقاته لزم طرد ذلك في كل صفة أو فعل خلقه، وإن خُصَّ ذلك ببعض الأفعال والصفات دون بعض كان تحكماً لا معنى له.

وحقيقة قول هؤلاء أنه لم يقم به عدل، ولا إحسان، ولا كلام، ولا إرادة، ولا فعل ألبتة، ومن تَجهَّم منهم نفى حقائق الصفات، وقال: لم تقم به صفة ثبوتية، فنفوا صفاته وردُّوها إلى السلوب والإضافات، ونفوا أفعاله وردُّوها إلى المصنوعات المخلوقات.

وحقيقة هذا أن أسماءه تعالى ألفاظ فارغة عن المعاني لا حقائق لها، وهذا من الإلحاد فيها، وإنكار أن تكون حسنى، وقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقد دَلَّ القرآن والسنّة على إثبات مصادر هذه الأسماء له سبحانه وصفاً كقوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:١٦٥] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ

ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] وقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤] وقوله ﷺ: «لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» [مسلم في صحيحه]، وقول عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات» [البخاري تعليقاً مجزوماً به] وقوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك» [مسلم في صحيحه]، وقوله: «أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق» [النسائي والبزار في مسنده] ».

القاعدة الثامنة والعشرون
آثار أسماء الله الحسنى

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك: «أسماءُ الله الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها، فاسمُ «السميعِ، البصير» يقتضي مسموعاً ومبصراً، واسمُ «الرزاق» يقتضي مرزوقاً، واسمُ «الرحيم» يقتضي مرحوماً، وكذلك أسماءُ «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، ويحلم.

ويستحيلُ تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهبَ اللهُ بِكُمْ، ولجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لهُمْ» [مسلم في صحيحه].

وأنتَ إذا فرضتَ الحيوانَ بجملته معدوماً، فمن يرزقُ الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضتَ المعصيةَ والخطيئةَ منتفيةً من العالم، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضتَ الفاقات كلَّها قد سُدَّت، والعبيدُ أغنياءُ معافون، فأين السؤالُ والتضرعُ والابتهالُ؟ والإجابةُ وشهودُ الفضلِ والمِنَّة والتخصيص بالإنعام والإكرام؟ .

فسبحان من تعرَّفَ إلى خلقه بجميع أنواع التعرُّفات، ودلَّهم عليه بأنواع الدلالات، وفتحَ لهم إليه جميعَ الطرقات، ثم نصبَ إليه الصراط المستقيمَ. وعَرَّفهم

به ودلَّهم عليه ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٤٢]». [مدارج السالكين:١/ ٢٤٠].

القاعدة التاسعة والعشرون
اتفاق الصحابة وعدم اختلافهم في مسائل الأسماء والصفات

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «لم يتنازع الصحابة في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتابُ والسنّة كلمةً واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يَسُوموها تأويلاً، ولم يُحَرِّفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدو الشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يَدْفَعُوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم: يجب صَرْفها عن حقائقها، وحملها على مجازها، بل تَلَقَّوْها بالقَبُول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأجْرَوْها على سَنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهلُ الأهواء والبِدَع حيث جعلوها عِضِينَ، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فُرْقَان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه». [أعلام الموقعين: ٢/ ٩١].

القاعدة المتممة للثلاثين
تفاضل صفات الباري فيما بينها

استدل ابن القيم رحمه الله تعالى على تفاضل أسماء الله وصفاته فيما بينها بحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». [عزاه محقق الكتاب لمسلم في صحيحه].

وقال ابن القيم رحمه الله مبيناً وجه الاستدلال بهذا الحديث: «وبعض صفاته وأفعاله سبحانه أفضل من بعض، فإن المستعاذ به منها أفضل من المستعاذ منه، وهذا

كما أن صفة الرحمة أفضل من صفة الغضب، ولذلك كان لها الغلبة والسبق، وكذلك كلامه سبحانه هو صفته، ومعلوم أن كلامه الذي يثني به على نفسه، ويذكر فيه أوصافه وتوحيده أفضل من كلامه الذي يذم به أعداءه ويذكر أوصافهم، ولهذا كانت سورة «الإخلاص» أفضل من سورة «تبَّت»، وكانت تعدل ثلث القرآن دونها.

وكانت آية الكرسي أعظم آية في القرآن، ولا تُصْغ إلى قول من غلظ حجابه: إن الصفات قديمة، والقديم لا يتفاضل، فإن الأدلة السمعية والعقلية تبطل قوله.

وقد جعل سبحانه ما كان من الفضل والعطاء والخيرة وأهل السعادة بيده اليمنى، وما كان من العدل والقبض باليد الأخرى، ولهذا جعل أهل السعادة في قبضته اليمنى، وأهل الشقاوة في القبضة الأخرى، والمقسطون على منابر من نور عن يمينه، والسماوات مطويات بيمينه، والأرض باليد الأخرى.

ومنها أن الغضب والرضا والعفو والعقوبة لما كانت متقابلة استعاذ بأحدهما من الآخر، فلما جاء إلى الذات المقدسة التي لا ضدَّ لها ولا مقابل قال: «وأعوذ بك منك»، فاستعاذ بصفة الرضا من صفة الغضب، وبفعل العفو من فعل العقوبة، وبالموصوف بهذه الصفات والأفعال منه، وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره». [شفاء العليل: ٢/ ٧٤٣-٧٤٤].

القاعدة الحادية والثلاثون
العلاقة بين الاسم والمسمى

هل الاسم هو المسمى أو هو غيره، بحث ابن القيم رحمه الله تعالى، وبين الحق فيها، ورد على المخالفين، وفي ذلك يقول: «اللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال مثلاً، له حقيقة متميزة متحصلة، فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه، لأنه شيء موجود في اللسان، مسموع بالآذان، فاللفظ المؤلف من همزة الوصل والسين والميم

عبارة عن اللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال مثلاً، واللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال عبارة عن الشخص الموجود في الأعيان والأذهان، وهو المسمى، واللفظ الدال عليه الذي هو الزاي والياء والدال هو الاسم، وهذا اللفظ أيضاً قد صار مسمى من حيث كان لفظ الهمزة والسين والميم عبارة عنه، فقد بَانَ لك أن الاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى، ولهذا تقول: سميت هذا الشخص بهذا الاسم، كما تقول: حليته بهذه الحلية، والحلية غير المحلى، فكذلك الاسم غير المسمى.

الفرق بين الاسم والمسمى:

لم يقل نحوي قط ولا عربي: إن الاسم هو المسمى، ويقولون: أجل مسمى، ولا يقولون: أجل اسم ويقولون: مسمى هذا الاسم كذا، ولا يقول أحد: اسم هذا الاسم كذا، ويقولون: هذا الرجل مسمى بزيد، ولا يقولون: هذا الرجل اسم زيد، ويقولون: بسم الله، ولا يقولون: بمسمى الله، وقال رسول الله ﷺ : «لي خمسة أسماء» [عزاه محقق الكتاب للبخاري ومسلم والترمذي] ولا يصح أن يقال لي: خمس مسميات و«تسموا باسمي» [عزاه محقق الكتاب للبخاري ومسلم وغيرهما] ولا يصح أن يقال: تسموا بمسمياتي، و«لله تسعة وتسعون اسماً» [عزاه محقق الكتاب للبخاري ومسلم وأحمد] ولا يصح أن يقال: تسعة وتسعون مسمى. وإذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى بقيت هاهنا التسمية، وهي التي اعتبرها من قال باتحاد الاسم والمسمى.

التعريف بالتسمية:

والتسمية عبارة عن فعل المسمّي ووضعه الاسم للمسمّى، كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلّي، ووضعه الحلية على المحلّى، فهنا ثلاث حقائق (اسم ومسمى وتسمية): كحلية ومحلّى وتحلية، وعلامة ومعلم وتعليم، ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها، وإذا جعلت الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد.

الرد على من قال الاسم هو المسمى:

فإن قيل: فحلوا لنا شبه من قال باتحادهما ليتم الدليل، فإنكم أقمتم الدليل، فعليكم الجواب عن المعارض.

١ - **الشبهة الأولى**: أن الله وحده هو الخالق وما سواه مخلوق، فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة، وللزم أن لا يكون له اسم في الأزل ولا صفة لأن أسماءه صفات، وهذا هو السؤال الأعظم الذي قاد متكلمي الإثبات إلى أن يقولوا: الاسم هو المسمى، فما عندكم في دفعه؟ .

الجواب: أن منشأ الغلط في هذا الباب من إطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين صحيح وباطل، فلا ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني، وتنزيل ألفاظها عليها.

ولا ريب أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها، فلم يزل بأسمائه وصفاته وهو إله واحد، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه، وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق، فليست صفاته وأسماؤه غيره، وليست هي نفس الإله.

وبلاء القوم من لفظة الغير، فإنه يراد بها معنيين، أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله، وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون إلا مخلوقاً، ويراد به مغايرة الصفة للذات إذا خرجت عنها، فإذا قيل: علم الله وكلام الله غيره، بمعنى: أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام، كان المعنى صحيحاً، ولكن الإطلاق باطل، وإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلاً لفظاً ومعنى.

وبهذا أجاب أهل السنّة المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وقالوا: كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه، فالله تعالى اسم الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك

الصفات صفة الكلام، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة، وإذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى، فإذا كان القرآن غير مخلوق، ولا يقال: إنه غير الله، فكيف يقال: إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة وهي غيره؟ فقد حصحص الحق بحمد الله، وانحسم الإشكال، وأن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه، وكلامه غير مخلوق، ولا يقال هو غيره ولا هو هو.

مذهب المعتزلة أن أسماءه مخلوقة:

وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره، وهي مخلوقة، ولمذهب من ردّ عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره، وبالتفصيل تزول الشبه، ويتبيّن الصواب.. والحمد لله.

٢- **الشبهة الثانية**: قالوا: قال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٧٨] ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل:٨] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى:١].. وهذه الحجة عليهم في الحقيقة، لأن النبي ﷺ امتثل هذا الأمر وقال: «سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي العظيم» ولو كان الأمر كما زعموا لقال: سبحان اسم ربي العظيم، ثم إن الأمة كلهم لا يجوز لأحد منهم أن يقول: عبدتُ اسم ربي، ولا سجدتُ لاسم ربي، ولا ركعتُ لاسم ربي، ولا باسم ربي ارحمني، وهذا يدلّ على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم.

وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم فقد قيل فيه: إن التعظيم والتنزيه إذا وجب للمعظم فقد تعظم ما هو من سببه ومتعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية والباب السامي والمجلس الكريم ونحوه، وهذا جواب غير مرضٍ لوجهين:

أحدهما: أن رسول الله ﷺ لم يفهم هذا المعنى، وإنما قال: «سبحان ربي» فلم يعرج على ما ذكرتموه.

الثاني: أنه يلزمه أن يطلق على الاسم: التكبير والتحميد والتهليل، وسائر ما يطلق على المسمّى، فيقال: (الحمد لاسم الله، ولا إله إلا اسم الله) ونحوه، وهذا مما لم يقله أحد.

والجواب الصحيح: أن الذكر الحقيقي محله القلب لأنه ضد النسيان، والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فُهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: (سبح ربك بقلبك ولسانك واذكر ربك بقلبك ولسانك) فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان، لأن ذكر القلب متعلقه المسمّى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله، لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهّم أحدٌ أن اللفظ هو المسبّح دون ما يدل عليه من المعنى.

وعبّر لي شيخنا أبو العباس بن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا سبح اسم ربك، المعنى: سبح ربك ذاكراً اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله المنّان بفضله، ونسأله تمام نعمته.

٣- الشبهة الثالثة: قالوا: قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف:٤٠] وإنما عبدوا مسمياتها.

والجواب: أنه كما قلتم إنما عبدوا المسمّيات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمّى لها في الحقيقة، فإنهم سمّوها آلهة، وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الألوهية إلا

مجرد الأسماء لا حقيقة المسمّى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً وأكلها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه، وكمن سمى التراب خبزاً وأكله، يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز، بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم، فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه، وما الحكمة ثم إلا مجرد الاسم، فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى.

٤ - **الشبهة الرابعة**: قالوا: قد قال الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومَن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وكذلك قول الأعشى:

داع يناديه باسم الماء مبغوم

وهذه حجة عليهم لا لهم، أما قوله: (ثم اسم السلام عليكما)، السلام هو الله تعالى، والسلام أيضاً: التحية. فإن أراد الأول فلا إشكال، فكأنه قال: ثم اسم السلام عليكما.. أي: بركة اسمه، وإن أراد التحية فيكون المراد بالسلام المعنى المدلول وباسمه لفظه الدال عليه، والمعنى: ثم اسم هذا المسمى عليكما، فيراد بالأول اللفظ، وبالثاني المعنى، كما تقول: زيد بطة.. ونحوه، مما يراد بأحدهما اللفظ، وبالآخر المدلول فيه، وفيه نكتة حسنة: كأنه أراد ثم هذا اللفظ باقٍ عليكما، جارٍ لا ينقطع مني، بل أنا مراعيه دائماً». [بدائع الفوائد: ١/ ١٦-٢٠ بشيء من الاختصار].

القاعدة الثانية والثلاثون
الجهمية يسمون مثبتي الصفات المشبهة والمجسمة

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «قال أئمَّةُ السُّنَّةِ منهم الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ، فهؤلاءِ الجهميَّةُ يُسمُّونَ إثباتَ صفاتِ الكمالِ لله - من حياتِهِ وعلمِهِ وكلامِهِ وسمعِهِ وبصرِهِ، وسائرِ ما وَصَفَ به نفسَهُ - تشبيهاً وتجسيماً، ومَن أثبَتَ ذلكَ مُشبِّهاً!.

فلا يَنْفِرُ من هذا المعنى الحقِّ لأجلِ هذه التَّسميةِ الباطلَةِ إلاّ العقولُ الصَّغيرَةُ القاصرَةُ خفافيشُ البصائرِ!!.

وكلُّ أهلِ نِحْلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نِحْلَتَهم ومقالتَهم أحسَنَ ما يَقدِرونَ عليه من الألفاظِ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ.

ومَن رَزَقهُ اللهُ بَصيرَةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ، ولا يغترُّ باللفظِ، كما قيلَ في هذا المعنى:

تقولُ هذا جَنى النَّحلِ تمدحُهُ وإنْ تشأ قلتَ ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدحاً وذمّاً وما جاوَزْتَ وَصْفَهُما والحقُّ قَد يَعتريه سوءُ تَعبيرِ»

[مفتاح دار السعادة: ١/ ٤٤٤].

القاعدة الثالثة والثلاثون
معرفة الإلحاد في أسمائه

١- تعريف الإلحاد في أسماء الله تعالى:

«قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠] والإلحاد في أسمائه هو: العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحقّ الثابتِ لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدلُّ عليه مادته فمنه: اللَّحْد، وهو الشَّقُّ في جانب القبر الذي قد مالَ عن الوسط. ومنه: المُلْحِد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السِّكِّيت: الملحد المائل عن الحق المُدْخِل فيه ما ليس منه، ومنه الملتَحَد، وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف:٢٧]

أي: مَن تَعْدِل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عَدَلَ إليه». [بدائع الفوائد: ١/ ٢٩٧].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في تعريف الإلحاد في أسمائه في موضع آخر: «وحقيقةُ الإلحاد فيها: العُدول بها عن الصواب فيها، وإدخالُ ما ليس من معانيها فيها، وإخراج معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقد كذبَ على الله. ففسر ابن عباس الإلحادَ بالكذب، أو هو غايةُ الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عَدَلَ بها عن الصواب والحق، وهو حقيقةُ الإلحاد». [مدارج السالكين: ١/ ٥٤].

٢- أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

أ- أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعُزَّى من العزيز، وتسميتهم الصنمَ إلهاً، وهذا إلحاد حقيقةً، فإنهم عَدَلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة. [بدائع الفوائد: ١/ ٢٩٨].

وقال ابن القيم رحمه الله في هذا النوع في موضع آخر:

تسميةُ الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابنُ عباس ومجاهد: «عَدَلوا بأسماءِ الله تعالى عما هي عليه، فَسَمَّوْا بها أوثانَهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان» وروي عن ابن عباس (يُلحدون في أسمائه) «يكذبون عليه» وهذا تفسيرٌ بالمعنى. [مدارج السالكين: ١/ ٥٤].

ب- تسميته بما لا يليقُ بجلاله كتسمية النصارى له: أباً، وتسمية الفلاسفة له: موجباً بذاته، أو عِلَّة فاعلةً بالطبع، ونحو ذلك.

ج- وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

د- تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمَّن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم: السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياةَ له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفِطْرَة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما مُلْحِد في أسمائه.

ثم الجهميةُ وفروخُهم متفاوتون في هذا الإلحاد؛ فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب. وكل من جحد شيئاً مما وصف اللهُ به نفسَه أو وصفَه به رسولُه ﷺ؛ فقد ألحد في ذلك، فليستقلّ أو ليستكثر.

هـ- تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علوّاً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطِّلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبَّهوها بصفات خلقه، فجَمَعَهم الإلحادُ وتفرَّقت بهم طرقُه، وبرَّأ اللهُ أتباعَ رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كلِّه، فلم يصفوه إلا بما وصفَ به نفسَه، ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أُنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات؛ فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خليّاً من التعطيل، لا كمن شبَّه حتى كأنه يعبدُ صنماً، أو عطَّل حتى كأنه لا يعبد إلا عَدَماً.

وأهلُ السنّة وسطٌ في النِّحَل، كما أن أهل الإسلام وسط في المِلَل، تُوْقَد مصابيحُ معارفهم من: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥]، فنسأل الله – تعالى – أن يهدينا لنوره ويسَهِّل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب. [بدائع الفوائد: ٢٨٤-٢٩٩ طبعة المجمع].

٣- السبب في إنكار الجهمية صفات الرب وأفعاله:

السبب في إنكار صفات الربّ القياس الفاسد، يقول ابن القيم في هذا: «ما أنكرت الجهمية صفات الرب وأفعاله وعلوه على خلقه واستواءَه على عرشه وكلامه وتكليمه لعباده ورؤيته في الدار الآخرة إلا من القياس الفاسد». [أعلام الموقعين: ٣/ ٢٠٦].

وتحدث في موضع آخر عن «الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهلُ البدع والضَّلال من الجَهْمِيَّة والمُعْتَزلة والقَدَريَّة ومن ضَاهَاهُم، حيث استعمل أهله قياساتِهِم الفاسدة وآراءَهم الباطلة وشُبَهَهُم الداحضة في رَدِّ النصوص الصحيحة الصريحة؛ فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها وتخطئتهم، ومعاني النصوص التي لم يجدوا إلى رَدِّ ألفاظها سبيلاً، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، والنوع الثاني بالتحريف والتأويل، فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين رَبَّهم في الآخرة، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده، وأنكروا مباينته للعالم، واستواءه على عرشه، وعُلوَّهُ على المخلوقات، وعموم قدرته على كل شيء». [أعلام الموقعين: ٢/ ١٢٦].

٤- الذين نفوا حقائق أسماء الله الحسنى ما قدروه حق قدره:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ما قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً». [الجواب الكافي: ١٩٨].

٥- المعطلون لحقائق أسماء الله وصفاته يبغضون الله إلى خلقه:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن: «الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يبغضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون، ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذي عليها:

فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر، ويروون في ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم.

ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء:٢٣] وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤]، ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم يترك في السماء رقعة وفي الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدر، وسطا عليه الحكم فقلب عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم: إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك، ولا ذنب أتيته إليه.

ويحتجون بقول النبي ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». ويروون عن بعض السلف: أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

وذكر الإمام أحمد بن حنبل عن عون بن عبدالله أو غيره: أنه سمع رجلاً يدعو: اللهم لا تؤمني مكرك، فأنكر ذلك وقال: «قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن

مكرك» وبنوا هذا على أصلهم الباطل، وهو إنكار الحكمة والتعليل والأسباب، وأن الله لا يفعل لحكمة، ولا بسبب، وإنما يفعل بمشيئته مجردة من الحكمة والتعليل والسبب، فلا يفعل لشيء ولا بشيء، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب، وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب، وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء، ولا يعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله.

فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون، لا لأنه في نفسه باطل وظلم، فإن الظلم في نفسه مستحيل فإنه غير ممكن. بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آنٍ واحد، والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة. وجعل الشيء موجوداً ومعدوماً معاً في آنٍ واحد.

فهذا حقيقة الظلم عندهم، فإذا رجع العامل إلى نفسه، قال: من لا يستقر له أمر ولا يؤمن له مكر، كيف يوثق بالتقرب إليه؟ وكيف يعول على طاعته واتباع أوامره، وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة؟ فإذا هجرنا فيها اللذات، وتركنا الشهوات، وتكلفنا أثقال العبادات، وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب علينا الإيمان كفراً والتوحيد شركاً، والطاعة معصية، والبر فجوراً ويديم علينا العقوبات، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة.

فإذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم، وتخمر في نفوسهم، صاروا إذا أمروا بالطاعات، وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه، ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسلت وبطلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمك، فيودع بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة ولا وعده على الإحسان.

وإن كبر الصبي وصلح للمعاملات والمناصب، قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس، فيجعله وزيراً أميراً، ويأخذ الكيِّس المحسن لشغله، فيخلده في الحبس ويقتله ويصلبه.

فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه، وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبه وجعله يخاف مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة والبريء بالعذاب، فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا بفعل الخير يستأنس، ولا بفعل الشر يستوحش، وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل، وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولا سيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس إليه لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلماً ولا هضماً، ولا يخاف بخساً ولا رهقاً، ولا يضيع عمل محسن أبداً، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠]، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وإنه يجزي بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة». [الفوائد: ١٧٨-١٨١].

٦- نفاة الصفات من الظانين بالله ظنَّ السوء:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا: «أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

[الفتح:٦] وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٣] وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧]. أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظنكم به حين عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص؟ حتى أحوجكم ذلك إلى العبودية لغيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم. وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجها، وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة حاجتهم وضعفهم وعجزهم في أنفسهم، وقصور علمهم. فأما القادر بنفسه على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء. فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص في حق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في الفطر السليمة فوق كل قبح».

[الجواب الكافي: ١٩٦-١٩٧].

فهرس